

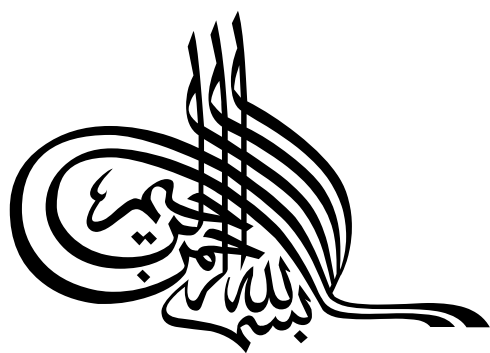
**إضاءات
في الرد على
الاستشارات**



إضاءات في الرد على الاستشارات

تأليف

سارة بنت محمد حسن



تقريظ



Islamic University Of Minnesota
8201 Park Ave, South
Bloomington , MN 55420
Phone: 001-6128609986
Almeneesey@yahoo.com
iuminnesota.com



الجامعة الإسلامية بمنيوتوا
كلية الدراسات الإسلامية
مدينة بلومنتون - ولاية مينيوتوا
مكتبة رئيس الجامعة
الأستاذ الدكتور وليد بن إدريس المنيسي

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :
فإني قد اطعته على كتاب (إضاءات في الرد على الاستشارات) للابنة الكريمة الأستاذة سارة بنت محمد
حسن وفقها الله ، فوجدته كتاباً مفيداً نافها وضعت فيه مؤلفته الكريمة حميدة خيرتها في الرد على
الاستشارات الاسرية وغيرها من خلال أنشطتها الدعوية المباركة بين النساء و من خلال مشاركتها المتميزة
في مواقع التواصل الاجتماعي ، ومؤلفة الكتاب طالبة علم درست عندي نحو سبع سنوات ، وجدتها خلالها
ذات همة عالية وجهود متميزة يبارك الله فيها وزادها من فضله فنسأل الله تعالى أن يتقبل منها عملها هذا
ويبارك فيه ، وينفع به الإسلام والمسلمين ، وبالله التوفيق.

٢٩ ربيع الأول ١٤٣٨ هـ

رئيس الجامعة الإسلامية بمنيوتوا

علي بن زيد

وليد بن إدريس بن عبد العزيز المنيسي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذي خلق عباده فجعل منهم أولي فهم ورشاد، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي آتاه ربه جوامع الكلمات.

أما بعد:

فقد كتبت منذ سنوات موضوعاً مسلسلاً مختصراً على منتديات أهل الحديث والمجلس العلمي بعنوان «إضاءات في الرد على الاستشارات» فاستحسنه جمع من رواده وأشاروا عليّ بجمعه والزيادة، فلما تيسر الأمر أحببت أن أقدمه لكم في ثوب ملائم إن شاء الله لكل قارئ، ورغم ما تجدونه من إعادة ترتيب وزيادات حسنة وتفصيلات ممتعة فإنه لا يزال بادياً في ثوب تقديم خبرات، وتصحيح مفاهيم، وإضاءات، وشذرات، ونقاط للانطلاق نحو التغيير والاستزادة من القراءة والتعلم على جميع الصعادات.

والاستشارات من أهم سبل التواصل الإنساني، ألا يكفي أنها تندرج تحت قوله النبي ﷺ: «الدين النصيحة»؟!!

إن جارك الذي يطرق بابك ليقصّ عليك مشكلة ما، وصديقتك التي تتصل بك باكية، وأفراد مجتمعك الذين ينتظرون منك كلمة حانية، كل ذلك هو نوع ممارسة لتقديم الاستشارة والعون والنصيحة. وهذا ليس حدثًا نادرًا بل هو من يوميات الحياة لكن البعض يمدّد العون فيفسد، والبعض يريد أن يمدّد العون فلا يجد لديه ما يقدمه.

لهذا أقدم لكم هذه الإضاءات لعلها تضيء أفقًا أو تنير دربًا، ورجائي أن تضيف عليها أيها القارئ من عصارة أفكارك ما يجعلك منارة مضيئة في حياة الآخرين، لا نارا حارقة أو رياحا مثيرة للزوابع والغبار!

وهذه كلماتي بين أيديكم، بذلتُ وسعي لتنضج على نار هادئة لا مستعرة فتحترق، ولا باردة فلا تنضج، ولا شك أنني أجتهد ها هنا لأبين ما عندي من وجهات نظر، وأنه كما يجد الناظر فرقًا واضحًا بين ما يقرأه ها هنا وما خطته يداي منذ سنوات، فإنني أرجو أن يكون ذلك عظة يدرك بها القارئ أهمية تراكم الخبرات، ويجعل لنفسه

هامشًا للازدياد من العلم والفهم ومواكبة ما يطرأ على نفسه وعقله من التطورات.

فكن خير آخذٍ، واجعل ما فيه لبنة في بنيان نفسك، وعونًا على مزيد بحث وفهم، وشموعًا تضيء آفاقًا جديدة، وإن الاختلاف يثير عند العاقل فضول التعلم والاستزادة، بخلاف من قنع بما عنده وضافت نفسه عن الخروج من ضيق فقر المعرفة إلى سعة آفاق العلم ورحابة الفكر وسلامة العقل.

ولا شك أن ما كان من صواب فمن الله - محض فضل ونعمة-، وما كان من خطأ وتقصير فمني ومن الشيطان، والعتب على من كان أهلاً ثم رأى مني أو مما كتبت شيئاً يخالف شرع الله فلم ينصح؛ ويسيء الظن أني لا أقبل نصحه.

فيا أيها القارئ إن أسأت الظن بي فقد أصبت، ولكن اعمل بأمر الله وانصح بعلم لا بجهل، فإنما الدين النصيحة، لعل الله يفتح بنصحك الحكيم قلوباً قد علاها الصدا وكساها الغرور والعجب والبطر، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يُلقي لها بالاً تدخله الجنة، فما يدريك لعل نصحك يصيب ذاك.

وكنت أرجو لو لم تخطه يدي قبل أن أستزيد من العلم، أو أن يتولاه من أكرمه الله بمزيد من العلم، فإن السنة والسير في تراثنا غنية سخية تحتاج من يتأمل بعمق وروية فيستخرج كنوزاً بكرًا ندية.

لكن لعلها عزم جاء بعد استشارة واستخارة، وتراثنا روضة، عبثت فيها؛ وكأنني طفلة فظفرت منها بزهرة وزهرة!

وإنك إذ تنظر فيما خطت يداي فلعلك تتمثل قول الشاطبي^(١):

وْظَنَنْ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ بِالْأَغْضَاءِ وَالْحُسْنَى وَإِنْ كَانَ هَلْهَلًا
وَسَلَّمَ لِإِخْدَى الْحُسَيْنِ إِصَابَةً وَالْأُخْرَى اجْتِهَادُ رَامٍ صَوْبًا فَأَمَحَلًا
وَإِنْ كَانَ خَرَقٌ فَادْرِكْهُ بِفَضْلَةٍ مِنَ الْحِلْمِ وَلْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مَقُولًا
وَقُلْ صَادِقًا لَوْلَا الْوَنَاءُ وَرُوحُهُ لَطَاحَ الْأَنَامُ الْكُلُّ فِي الْخُلْفِ وَالْقَلَا

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يجعلنا ممن وافق قوله عمله، فكثيرًا ما يخالف قول المرء فعله ويعاني منه أحبابه ويحسب من لم يعرك أخلاقه أنه على شيء.

(١) متن حرز الأمان.

فأستغفر الله من ذلك كله، وعزائي أني بعيب نفسي معترفة،
وبلساني إلى إخواني وأخواتي معتذرة، وإن ما أخفاه الله عنكم أعظم
ولكنه ستر الله الجميل.

وإلى الله أبرأ من حولي وقوتي وألجأ إلى حوله وقوته وبه أستعين.

وكتبه

سارة بنت محمد حسن

وكان تمامه في يوم الخميس

١٢ من جمادى الأولى ١٤٣٨ هـ.

* * *



فصل

ومضات الفجر

أخلاقك وقلبك.. هل تعتني بهم؟

مفتقد الشيء قد يعطيه خصوصاً لو كان ما يفتقده يساوي شعور
الحصول عليه وبذله!

لكن الحقيقة أن فاقد الشيء لا يعطيه، هذا مما لا ينبغي أن نشك
فيه.

إذا كنت فاقداً لحسن الخلق، وجمال الروح، وتفقد باطنك،
والعناية بقلبك.. فأنتى لك العطاء؟!

لا أقول لك: توقف وارجع حيث كنت!... فإنما أنا مثلك؛ أفتقد
الكثير من هذه الأشياء الجميلة... لكن الموت على الطريق أفضل من
الانحراف عنه... ذاك يناسبني فإنه أكثر نبلاً وعزة!

أقول لك هيا.. ابدأ من هنا

تفقد قلبك.. لا تنظر حولك!

١- الاستشارات.. لماذا؟

٢- توكل... افتقار!

٣- شفقة.. رحمة!

٤- ترفق... فما الرفق؟

٥- تمنى الخير لمن خالف نصحك... حسن خلق!

٦- الستر وترك المعايرة والتنقص!

٧- الصبر والاحتساب!

٨- حب وخشية ورجاء!

الاستشارات ... لماذا؟

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ، فاشتراط عليّ: «والنصح لكل مسلم»^(١).

أن يكون قلبك صافياً تجاه إخوانك المسلمين، تبذل لهم قولك وفعلك خالصاً من شوائب نفسك وأهوائها... بل أقول تبذل لهم صمتك إن كان الأفضل أن تصمت!

فحين أسكت عما لا أعلم أو أقبض لساني عن الثثرة بما يعربد في الوجدان من الغضب المفسد أو السعادة المشفية.. يكون الصمت نُصْحًا!

حين أقول لإخواني: اسأل طبيباً أو مستشاراً متمرساً، ولا أقتحم ما لا طاقة لي به... يكون الصمت نصحاً!

ألا تدرك أهمية هذا الصفاء تجاه أبناء الأخوة الإيمانية كي

(١) متفق عليه.

يشترطه النبي ﷺ إذ يبايعه صحابي جليل على الإسلام!

أفلا تستحق أن نعطيها شيئاً من وقتنا وهمتنا وهمنا؛ فنتعلم ما نحتاج إليه لتكلم ونعرف ما ينقصنا فنرتق عجزنا فيه، ونعرف متى نصمت ونقول: لا نعلم.

عندها يكون كلامك وصمتك نصحاً فتغنم إن رمت غنماً وتسلم إن أثرت سلامة.

وطالب النصيح يطلبه وهو في حاجة لها، فقلبه يعي، وأذنه تنصت، وعينه تنظر، وكل حواسه متعلقة بكل كلمة بشغف، بخلاف من تقتفي أنت أثره مشفقاً، فيكون وقع كلماتك عليه أعظم أثراً وتقع منه موقعاً حسناً.

ويا لحظّ مَنْ استغاث به ملهوفٌ يطلب نصحاً فأجابه بما يصلحه؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «على كلِّ مسلم صدقة». فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق». قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف». قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فليعمل بالمعروف، وليمسك عن

الشرّ، فإنها له صدقة» (١).

ويا لسعادة من فرج عن مسلم كربة ولو بدعاء ثم ستر ما ينبغي ستره؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه؛ مَنْ كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته. ومن فرّج عن مسلم كربةً، فرّج الله عنه بها كربةً من كُرْبِ يوم القيامة. ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة» (٢).

وإنها والله لدرب من دروب التعاون على البر والتقوى، وفيه من الخير ما لا يعلمه إلا الله فعليك قلبك أصلح نيته، وعليك عملك وما تقدمه فاضبطه مرة بعد مرة حتى يستقيم.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

توكل... افتقار!

أنت وسيلة!

هل تدرك ذلك؟ أنت وسيلة يسوق الله بها لعباده نفعًا... فلا تعدّ قدرك! لتكون كلماتنا مختارة، وقلوبنا حريصة على أن يتعلق السامع بالله لا بالدنيا وما فيها، وأن يأخذ بالسبب مع اعتماد القلب على الله. هذا حجر الأساس في بنيان نفسك أولاً فإن صدقت الله فيه وجعلته نصب عينيك فاض من قلبك على لسانك فاغترف منه الناس حتى يشبع جائعهم!

فاستعن بالله، وافتقر إليه سبحانه وتبرأ من كل حول لك وقوة، وإياك أن تركز إلى نفسك فتوكل إليها ولا ينفع الندم يوم الحساب. إياك أن تثق بنفسك فتهلكها، وإياك أن تعين مستشيرك على الثقة بنفسه فتهلكه، تذكر هتافك في إخلاص في أذكار الصباح والمساء: رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً!

يقول ابن القيم: «أكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهوداً لفقره وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك» وكان يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت

قلبي على دينك» يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن ﷻ لا يملك منه شيئاً... فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده اهـ.

أنت مفتقر إلى ربك فأظهر الافتقار، وعلم الناس كيف يفتقر إلى الله. إياك أن تعلمه أن يثق بك وأن بيدك نجاته، بل أنت ناصح تشير عليه برأي إن أخذ به لعل فيه نجاته، وإن تركه وجنح إلى غيره فنرجو له العافية والسلامة والسعادة.

أنت مجتهد تخطئ وتصيب، فإن أردت أن تؤجر فأخلص لله وتوكل عليه واستعن به.. اعمل بذلك قلباً وقولاً وعملاً، وعلم الناس كيف يفعلون.

يقول ابن القيم: «فمن عرف ربه عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه العلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل... ومن ها هنا خذل من خذل ووفق من وفق؛ فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه فطغى وعتا فحققت عليه الشقوة» اهـ^(١).

(١) طريق الهجرتين.

شفقة.. رحمة!

تعاطف مع صاحب المشكلة ولو كان مخطئاً مستحقاً للتأنيب.

قبل أن تنطق كلمة أو تكتب كلمة ... ارحمه!

كذا كان نبيك نبي الرحمة، وتأنيب المحب أقرب رُحماً من تأنيب الغاضب، وقبول النصيحة من فم ناصح وقلب رحيم أيسر على أخيك، والتماسك الرحمة في قلبك واستثارتها، وفهم دوافع مَنْ تنصحه لا يعني أن صاحبك ليس مخطئاً، ولا يعني عدم بذل النصح له واتخاذ كل ما يحتاجه الموقف من إجراءات صحيحة.

ألا ترى أن خير طبيب لك مَنْ يرحمك ويفتح بمشرطه ما ينبغي فتحه أو يغرز إبرة فيخيط ما ينبغي غلقه؟!

لم تدفعه رحمته ألا يعالجك ولو تألمت.. كما لن تحب أنت أن تشعر منه بقسوة أو غلظة أو تعالٍ إذ يعاونك!

تأمل ما فعل النبي ﷺ مع الأعرابي الذي جاء فبال في المسجد!

يقول أبو هريرة: فتناوله الناس، ويقول أنس بن مالك: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه.

فماذا فعل رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تُزْرِمُوهُ. دَعُوهُ» فتركوه حتى بال.

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تَصْلُحُ لشيءٍ من هذا البول ولا القذر. إنما هي لذكر الله ﷻ، والصلاة، وقراءة القرآن». قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلوٍ من ماء، فبَشَّتْهُ عليه. والحديث في الصحيحين (١).

وفيه فائدة:

هذه الرحمة بهذا الرجل المرتكب لهذا الخطأ تساعد على اتخاذ قرارات سهلة وقريبة وأقل ضرراً وأكثر نفعاً.

فإن المسجد تلوث وانتهى الأمر، ومزيد نجاسة في نفس البقعة لن يزيد الأمر سوءاً، بل قطع بول الرجل قد يؤذيه أو يوقع عليه ضرراً أو حتى يسير ألم بلا نفع يعود على المسجد.

فالرحمة ليست فقط شعور يهذب سلوكاً، بل أيضاً تهذب فكراً، وترتب ذهنًا، وتطلق ملكات الإبداع وانتقاء الحلول الملائمة بأقل ضرر وأقل مفسدة.

(١) رواه البخاري ومسلم.

وليست الرحمة هي تلك الشعور المرهف المؤدي للعجز أو الجزع الذي يعوق التصرف السليم واتخاذ القرارات الحاسمة.

يقول ابن القيم: «والفرق بين رقة القلب والجزع أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب... فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولا ينافي هذا رقة القلب فإنها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال، والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله أرق الناس قلباً وأبعدهم من الجزع» اهـ^(١).

فكلما زاد نصيبك من رحمة العباد مستصحباً ذلك في قراءة أحوالهم، كلما أعانك ذلك على تقديم حلول نافعة بأقل قدر ممكن من الضرر أو المفسد بإذن الله.

(١) الروح، ابن القيم.

ترفق... فما الرفق؟

يقول نبينا ﷺ: «من حُرِمَ الرفق حُرِمَ الخير»^(١).

فالرفق مطلوب محبوب، ولكن ما هو الرفق؟

نحن نعاني عادة من أننا نتصور لكل سلوك صورة ذهنية معينة تتبادر إلينا كلما تحدثنا عن هذا الخلق أو السلوك، ثم نحاكم الناس إليها فمن وافق هوانا شهدنا له ومن خالفنا أسقطناه! وهذا خطأ.

ألا ترون أن شرع الله هو الرفق، والرفق هو شرع الله، ثم إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ [النور: ٢].

يقول القرطبي: «أَيُّ لَا تَمْتَنِعُوا عَنْ إِقَامَةِ الْحُدُودِ شَفَقَةً عَلَى
الْمَحْدُودِ... وَالرَّأْفَةُ أَرْقُ الرَّحْمَةِ» اهـ^(٢).

كيف إذن؟ بل كيف شرع الله الحدود من قطع يد وقتل للقاتل
وجلد وغير ذلك؟

(١) رواه مسلم.

(٢) تفسير القرطبي.

أتدري لم كان ذاك؟

لأن الشفقة في غير محلها عيٌّ وغيٌّ، وتضييع للحزم والعزم، ألا ترى أنك لو رحمت الشاة والبقر لم تأكل لحمًا؟ ولو رحمت الزهر والورق لم تأكل نبتًا؟ ولو فعلت ذلك لاستحققت بامتياز مكانا بارزا في أخبار الحمقى والمغفلين!

دعك من ذلك، ألا ترى أنك إذا رحمت الحشرات المؤذية أفسدت بيتك وطعامك وأصابك أهلك بالأمراض والأسقام؟

فلا تظن أن الرفق يخالف ما به يقوم العوج ويصلح الخطأ في إطار من الشرع، وشرع الله هو الرفق كله، لكن الرفق ليس محصورا في تلك الصورة الذهنية التي رسمتها ريشة الفنان النصراني على جدران الكنائس لقسيسٍ وديعٍ ذليلٍ النظر مبتسمٍ، ثم لم تُظهر الصورة يديه المملوخة بدماء مسلمي الأندلس في أقيية محاكم التفتيش!

خشونة توجب تنظيفا... هي رفق ولو أبيت!

حين جاء اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا له: «السام عليك» فغضبت عائشة وقامت فقالت: «وعليكم السام واللعنة» وجاء في بعض

الروايات أنها قالت: «يا أبناء القردة والخنازير» أو نحو ذلك، فقال النبي ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». فقالت: يا نبيَّ الله، أولم تسمع ما يقولون؟ قال: «أولم تسمعي أني أردُّ ذلك عليهم، فأقول: وعليكم»^(١).

كلنا ينصرف تركيزه على قول النبي ﷺ لعائشة: «إن الله يحب الرفق»، وذاك مهم جدًا وحق، لكن ألا ينبغي أن نفهم ما الرفق، فإنه ليس شيئاً يُدرك بالذوق والإحساس والشعور!

مما ينبئك عن شيء من إطار ما ينبغي أن يسمى رفقا هو فعل النبي ﷺ نفسه في نفس الحديث: فقد قال لليهود: «وعليكم».

وهذا إنما أذكره كإشارة لفهم أن الأمر ليس هو المحصور فيما تلوثت به الأذهان، وأنه ربما علينا أن نعيد التفكير والتعلم.

يقول ابن تيمية: «وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل

(١) متفق عليه.

إحداهما الأخرى. وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة؛ لكن ذلك يوجب من النظافة والنعموة ما نحمد معه ذلك التخشين»^(١).

إن الرفق إذن ليس هو ما تحب أن تسمعه ممن يعالج داءك، فلو ترفق بك طبيب على طريقتك فتركك حتى لا يؤلمك بلا علاج لكان فعله مجافياً للرفق الحقيقي ولو أعجبك رفق المزعوم.

والإسلام كله رفق، لكن شرع الله فيه الحدود؛ وهي الرفق كله، لا من زاوية نظر ضيقي الأفق لكن من زاوية مَنْ ينظر نظرة شمولية للأثر الحسن ومآل الأمور، فهو رفق بالمجتمع ولو كان فيه إيلا م فرد واحد.

فلا تنصب نفسك حكماً على الناس، هذا رفيق يا رفيقي وهذا مجافٍ للرفق عنيف، فإن هذا يحتاج إلى علم بالشرع والأخلاق وعلم بمآلات الأمر وأثر الفعل والقول، فإما أن تحسن ذلك أو لا تتسلط على الناس.

هذه واحدة.

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية.

أما من جهة كونك مستشارًا فافعل ما ينبغي فعله وقل ما ينبغي قوله مريدًا للإصلاح عالمًا بمآلات فعلك ولا تأبه لقول قائل: ترفق!

فإنك حين تستخدم حزمًا أو قوة أو ردعًا أو زجرًا تصيب بسهمك عين مرماك ووسطه فتغنم ويغنم صاحبك أو يسلم وحين ينبلج الصبح يبصر الأعمى حُسن العاقبة وينقلب حامدك ذامًا!

بل لا تقضِ وقتك في محاولة الشرح لمن لا يحسن التفريق بين ذوقه والشرع، فقط احرص على أن يكون ما تفعله فيه صلاح المآل واجتهد ثم احتسب.

تمني الخير لمن خالف نصحك... حسن خلق!

إذا شاورت شخصاً فنصحك نصيحة، فرأى منك تردداً، فتمنى
أن تذوق وبال أمرك إن خالفت نصحه!

هل تراه ناصحاً محبباً شفوفاً رحيماً؟ بماذا تصفه؟

تنبه إذن لهذه الخصلة!

ولا تنظر حولك، تفقد قلبك أنت!

يقول ابن القيم: «ومن الفروق بين الناصح والمؤنب: أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته، وقال قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل، ويدعو لك بظاهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، والمؤنب بضد ذلك» اهـ.

تلك إذن خصلة مذمومة تجافي النصح والإحسان وتجافي
الإخلاص وطلب وجه الله بفعلك وقولك!

بل ينبغي تمني الخير للمسلمين أجمعين ومعرفة قدر نفسك وقدر
مولائك ﷺ فإنك عبد فقير تخطئ وتصيب، ونصيحتك إن كانت لله
خالصة فينبغي تخليصها من حظ النفس والرغبة في العلو على الخلق،

وينبغي أن تقصد بها نفعه، فإن كنت تقصد بها نفعه لن يتمنى قلبك أن يذوق وبال أمره إن خالفك!

بل نتمنى أن يعافيه الله من شر نفسه، ويعافيك الله من شر نفسك!

وإنك إن كنت تعلم أن نصيحتك إنما هي اجتهاد ورأي، وأن الهدف مساعدة أخيك والأجر من الله، فعلام تتمنى له الشر إن خالفك؟ وما يضرك إن عافاه الله برحمته؟

وفرق بين الشعور بالألم والحسرة لما قد ينال صاحبك من عاقبة فعله مع نصحك له، فإن هذا الشعور يصدر عن الرحمة ولا يقارنه تمنى الشر.

يقول ابن القيم: «والفرق بين الموجدة والحقْد: أن الوجد الإحساس بالموءم والعلم به وتحرك النفس في رفعه، فهو كمال. أما الحقْد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزال القلب أثره»^(١).

ومعرفة العبد أن الأمور تسير في الكون بقدر الله وأن من قدر الله أن نأخذ بالأسباب، مع معرفته أن الأسباب لا تنحصر فيما يظهر لنا

(١) الروح، لابن القيم.

فحسب، بل هناك أسباب تخفى يقع بها اللطف أو حتى يتخلف بها الضرر، كالدعاء والتضرع ودعاء الناس - وأنت منهم - لصاحبك بظهر الغيب، وغير ذلك من أسباب قد يتخلف بها الضرر.

بل سيأتي إن شاء الله أن صاحبك قد يكون حجب عنك بعض المشكلة وتفصيلها لأسباب وأحوال، فيكون توقعك شر المآل في غير محله ابتداء!

فاحرص على صيانة قلبك من الحقد فإنه كما يقول ابن القيم: «يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه»^(١).

(١) الروح، ابن القيم.

الستر وترك المعايير والتنقص!

المستشار مؤتمن!

لا يعاير ولا يفضح!

ولا يستغل ما اطلع عليه من ضعف إخوانه في مآرب شخصية!

بئس الفعل ذاك إذن، قد خسر فاعله وما كان من المهتدين!

قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وهذا سلوك عام مطلوب موافق لأخلاق الإسلام، لا يطيقه إلا من سما بقلبه وخلقه.

فإن تعلق الأمر باستشارة وحاجة كان ذلك آكد، كيف لا وقد جاءك أخوك منكسراً يرجو منك نفعاً؟ يكشف عندك سرّاً أو عورة؟

وإن كان ذلك الستر وترك المعايير والتنقص من أبجديات من يتصدر للاستشارات في الغرب وعيادات الطب النفسي، فتعامل المسلم بذلك كخلق وسلوك يومي أولى بها بلا تردد.

(١) متفق عليه.

وهذا السلوك السويّ مطرد في كل ما يتعلق بالنصيحة.

يقول ابن القيم: «والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه؛ فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه، فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولأئمتّه، ويعامله معاملة الطيب العالم المشفق المريض المشبع مرضاً وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن، فهذا شأن الناصح.

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح، فهو يقول: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقاً الدم والإهانة، في صورة ناصح مشفق.

وعلازمة هذا: أنه لو رأى مَنْ يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ويطلب له وجوه المعاذير. فإن غلب قال: وآتت ضمنت له العصمة، والإنسان عُرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساويه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك»^(١).

(١) الروح.

فها هنا يبين ابن القيم الفرق بين حال من صلحت نيته ومن أراد التعيير والفضيحة وهتك الستر!

فينظر الإنسان في قلبه وفعله ويرى هل قصد الشفقة والرحمة والأخذ بيد أخيه إلى النجاة؟

إن كان كذلك فكيف بذل وكيف فعل ليحقق نيته؟

ونعم ما ذكر ابن القيم من مثال الطبيب، ليفهم القارئ أن القصد فعل الصواب للوصول إلى المأرب بما يغلب على الظن الصلاح به؛ من حزم وقوة ولين بحسب الموقف، وليست الفضيحة والتعيير من الإصلاح قطعاً ولا يمكن أن تصلح لا الفاعل ولا المفعول به.

ولا يستجرينك الشيطان فيوسوس لك أنك مصلح بالفضيحة أو التعيير، أو أنك ناصح محب! أو أنك تعمل بقول النبي ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» فتفضح وتعير بلا فقه ولا علم ثم تنسب ذلك لدين النبي.. بئس الفعل والفهم ذاك.

لم تكن الفضيحة أبداً من أخلاق المسلمين فضلاً عن أخلاق المصلحين.

بل جاء الشرع باطراد الستر، حتى في كبيرة الزنا، وأحكام

الشهادات تفيض بمثل ذلك، وسيرة النبي ﷺ وصحابته والأئمة والعلماء تفيض عباقراً وعطراً بهذه الأخلاق السامية، فكن على جادتهم ولا تحد وتنحرف وتلمس الأعذار لتركب الأحموقة، واتق الله يجعل لك فرقاناً ونوراً ويغفر ويعفو ويرحم.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن كثير نقلاً عن علقمة: «ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليُدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة» (١) اهـ.

بل هناك معنى أرقى وأسمى خلقاً ينبغي التنبه له كذلك، يقول الشيخ أحمد سالم: «أخوك، أختك، صديقك، وأحياناً والدك، وممكن حد من عموم الناس لو أنت شخصية عامة أو مفتي مثلاً، هناك لحظة ضعف معينة تدفع شخصاً ما من هؤلاء لتعرية نفسه أمامك، يطلعك على صندوقه الأسود، يصطحبك إلى الجانب المظلم من حياته.

أحياناً كثيرة يندم بعدها على فعله هذا، وقد تراه بعد ذلك يفر منك؛ لأنه كلما رآك كره لحظة ضعفه هذه، يشعر حرفياً إذا رآك أنه بلا ثوب

(١) تفسير ابن كثير.

يستره، أنا أعاني من هذا كثيرًا مع الناس، ولذلك أجتهد قدر ما أستطيع أن أنسى أن الشخص قد حكى لي شيئًا، لا أذكره به قط، لا أسأله عن الموضوع تحت ستار الاطمئنان، أنسى تمامًا، وإذا رأيته عطلت شاشة العرض في رأسي؛ كي لا تعرض شيئًا مما أخبرني به.

في الحقيقة: أحاول أن أساعده على طمأنة نفسه أن ما يظنه حدث، وأنه أخبرني لم يحدث قط» اهـ.

* * *

الصبر والاحتساب!

ستؤذى!

فاصبر واحتسب.

لا تأخذ الأمور بمحمل شخصي، أنت خارج دائرة الصراع فكن كذلك ولا تقتحمها!

حتى إن تعرضت للأذى، احتفظ دومًا بمكانك خارج دائرة الصراع.

قد يفرغ صاحبك في شحنة غضب، أو يتحدث بانفعال لا تجاهك، فلا تتحسس، وكن أوسع صدرًا وأكثر حلمًا.

يقول ابن القيم: «والفرق بين العفو والذل أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا، مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس»^(١).

وأنت في موضع قوة وعزة، وصاحبك في موقع حاجة، فالعفو هنا من حسن الخلق وكرم الشيم وارتفاع الأخلاق وسموها.

(١) الروح.

وهذا لا يعني أن تبلغ حد المهانة، فإن تجاوز الأمر حده المعقول المقبول فالانسحاب أو العتاب أو الحزم والقوة هي حسن الخلق.

وها هنا فرق آخر ينبغي الإشارة إليه:

يقول ابن القيم: «والفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد، وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكي، فيحبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والجوارح عما لا ينبغي فعله، وهو ثبات القلب على الأحكام القدريّة والشرعية.

أما القسوة فيُيس في القلب يمنعه من الانفعال، وغلظة تمنعه عن التأثر بالنوازل، فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله»^(١).

فكذلك أنت، كن صبوراً لا قاسياً جلفاً! فتناجى بالأجر يا ذا الله ويمارس قلبك عمله فيصح ويسلم.

وأمر آخر ينبغي التنبه له:

كن ربانياً!

(١) الروح.

إن الصبر على التدرج هو من الصبر المطلوب، فلا ينبغي أن تلقي بأوراقك دفعة واحدة حينما يكون الصواب أن تتدرج في إيصال ما تريد إيصاله إلى صاحبك.

وهذا باب من الصبر عظيم فإن النفس تحب الاستعراض والاستطالة، فيصعب حبس اللسان عن الثثرة حين ينبغي عليه الصمت، وطبيعتها هوجاء خفيفة لا تخرج ما عندها بمقدار.

قال البخاري في صحيحه؛ باب العلم قبل القول والعمل...
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ حُلَمَاءُ فُقَهَاءَ حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ. وَيُقَالُ
الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ^(١).

(١) صحيح البخاري «كتاب العلم».

حب وخشية ورجاء!

كن محبًّا لإخوانك، معلمًا إياهم حب الله.

كن راجيًّا رحمة الله، معلمًا الناس الرجاء.

عش بخشية الله، والحياء من نظره إليك، وعلم الناس الخشية والحياء!

تعلم أنك بشر وأنهم بشر وأن البشر من طبعه الخطأ والزلل والذنب، يقول رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنّبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر الله لهم» رواه مسلم.

هل تأملت جادًا في هذا الحديث؟

لن يمر اليوم بلا ذنوب، فلا تأمل في يوم كيوم جبرائيل وميكايل، لكنّ لك ولعباد الله ربًّا وسعت رحمته كل شيء؛ فاستغفروه وتوبوا إليه وجددوا التوبة. قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ومن جاءك يطلب نصيحتك فهو في ضيق وكرب وربما ذنب، يريد أن ينخلع منه، وهو يعاني ويتجرع ذله ووبال أمره، فلا تُقنط عباد الله من رحمته، وتذكر أن الله أفرح بتوبة عبده إذا تاب من فرح رجل فقد راحلته وزاده فأيقن الهلاك في صحراء فإذا به يجده أمامه! كما في الحديث الصحيح.

وقال رسول الله ﷺ: «أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب أذنبت ذنبًا فاغفر لي، فقال الله: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب أذنبت ذنبًا آخر فاغفر لي، فقال ربه: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، فليفعل ما يشاء» متفق عليه.

يقول النووي: «وقوله تعالى: «فليفعل ما يشاء» أي مادام يفعل هكذا، يذنب ويتوب أغفر له فإن التوبة تهدم ما قبلها»^(١).

وأحاديث الرجاء كثير لعلك تستحضرها فتتكسر نفسك حياء

(١) رياض الصالحين.

ورجاء، وتبث عبير الرجاء من قلبك إلى القلوب، ولا تقنط عباد الله من رحمته.

وهذا ليس من التمني فإن التمني هو «حديث النفس بحصول الظفر والفوز مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه»^(١).

وصاحبك ليس كذا حاله، فإنه أذاك طالباً نصحك آخذاً بالأسباب، ولو ضعف عزمه، فلا تقنطه، ولا تكن عوناً للشيطان عليه.

* * *

(١) الروح.



فصل

آفاق جديدة!

هذه شذرات عامة تتسلل من نوافذ شرفات عقلك إليك!
فلعلك بها تُجدّد حجراته، والتراب مبعثر بها من فوق أرضه وأثاثه،
ومهيأ لها في منزلها منك ميثراً فاخرة!

قد تكون بعضها قصيرة إلى حد الإخلال، أو طويلة إلى حد
الإملال! لكن المرجو منك أيها العاقل حسن الاستفادة!

- ١- هواية أم احتراف!
- ٢- قناعتك أن هناك حل... حل!
- ٣- الحلول الجذرية أكثر من اللازم!
- ٤- احذر الفتوى بلا علم!
- ٥- مراعاة الأحكام الشرعية في سماع الاستشارات.
- ٦- لا تضع كليشيهات للرد على كل استشارة.
- ٧- لا تتحمل عنهم المسؤولية.
- ٨- لست عليهم بمسيطر.
- ٩- ملفات صالحة للاستخدام.
- ١٠- لا تعتنق الأفكار مسبقة!

- ١١- إسعافات أولية!
- ١٢- فروق ينبغي فقهها!
- ١٣- طبائع ينبغي إدراكها!
- ١٤- التوبيخ شهوة!
- ١٥- هجوم سفيه!
- ١٦- إنها ليست خبرة حقيقية!
- ١٧- أخرج نفسك من حيز المشكلة.
- ١٨- الماء البارد.
- ١٩- مواطن القوة!
- ٢٠- توجيه لا جبر.
- ٢١- لا تُرق ماء وجهه.
- ٢٢- هذب!
- ٢٣- بين الاختصار والتطويل!
- ٢٤- لا تقع على كلمات الكتب بالصمم والعمى.
- ٢٥- لا تكن قس اعتراف!
- ٢٦- إنها ليست مسابقة.
- ٢٧- لا تكن إجابتك كقصر التيه!

٢٨- موهبة وتركيز!

٢٩- قوة قلب!

٣٠- لا تبخل بمعلومة طالما وضعتها في موضعها.

٣١- لا تكن مثاليًا في ردّك... قل شيئًا ممكن التطبيق!

هواية أم احتراف!

يكررون كثيرًا أن المحترف فقد اللذة والاستمتاع بخلاف الذي يمارس عملاً كهواية يحبها، ويتحول عمله مع الوقت إلى عادة ويشعر بأنها ثقيلة ويخفق بما كان يستمتع به!

وممارسة الاستشارات ونفع الناس يصلح منك إن اعتنيت بظاهرك وباطنك مخلصًا لله، ويقينك إن شاء الله من أمراض نفسية كثيرة والجزاء من جنس العمل، ونسأل الله أن يجعل أجرنا محفوظًا عند الله في الآخرة غير منقوص.

حسنًا هذا حسنٌ... ولكنه ليس مرادي ها هنا وحسب!

أردت أن نعتني بعدة أمور:

١- لا تتهافت على نصيح من لم يطلب نصيحتك، ولو كنت تظن أنك أهل لإفادته؛ لأن الإنسان إذا طلب نصيحة أو فائدة كان أسمع ممن لم يطلب.

ولأن هذا نوع تطفل منك على أشياء ربما لا يريد صاحبك عرضها عليك.

ولأنك تظن أنك ستتنفعه لكنك لا تدري أين النفع.

وممارستك واحترافك ليس مبرراً لهذا الفعل.

٢- الناس طباع، وكثيراً ما نغفل عن أن النفوس والأرواح جنود مجنّدة، فحتى الطبيب النفسي الذي احترّف علاج النفوس قد يفشل العلاج فقط لعدم تناغم روحه مع روح المريض.

والحاجات النفسية المتعلقة بعلاج النفس والاستشارة ليست مجردة عن تألف النفوس.

بل قد يفشل أو يتأخر علاج الأمراض البدنية إن لم يتألف المريض مع طبيبه أو البيئة المحيطة به!

٣- كن هاوياً، محباً لما تعمل سواء احترفته أو لا، ولا تهدر جهدك في غير موضعه الملائم لك، ولا تجعل الاحتراف وكثرة الممارسة تفقدك هذا الشعور المهم.

٤- لا تتعجل احترافك للاستشارات كمهنة حتى يستوي عودك، فليس النجاح مرة أو مرتين مما يؤهلك للتصدر لذلك تصدراً عاماً.

٥- التطوير المستمر للأسلوب واكتساب المهارات اللازمة وسعة الاطلاع والحرص على معرفة ما يهم المستشار من قواعد الشرع

تساعدك دومًا على الاستمرار، فلا تقف عند حدّ تظن أنك لن تحتاج بعده أحدًا.

٦- كن هاويًا لا محترفًا!

حتى لو كنت محترفًا للاستشارات، اعمل مستصحبًا روح المتعة والهواية، لا تُقبل على كل شيء ولا كل شخص!

قناعتك أن هناك حل... حل!

ثقة المستشار في أن لكل مشكلة حل من أهم النقاط في إيجاد الحل
بإذن الله!

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذا الحل... مشكلة!
قد يكون الطلاق حلاً، وقد تكون القطيعة حلاً، لكن هذا يحتاج
إلى كثير من الحكمة.

بل قد يكون من الحلول ألا تقترح حلاً!
مجرد أذن كبيرة تسمع مع توجيه إيماني لطيف.
مجرد السماع بإنصات والتفاعل بكلمة طيبة وابتسامة قريبة، قد
يكون أكبر أثراً من اقتراح حلولاً خرقاء.

بل الدعاء حل إذا لم تجد ما تنفع به صاحبك.. ففي الدعاء له خير.
وتذكر أن يقين المرء في الله، ورفع يديه بالدعاء، وتفويض الأمر
إليه هو في الواقع حل لا سيما مَنْ أغلقت دونه كل الأبواب.

اللهم دبر لنا فإننا لا نحسن التدبير.

الأمر قد يكون بحاجة إلى الكثير من الشجاعة من المستشار

والمستشير لطرق الأبواب المغلقة أو الدروب المهجورة.

الإبداع والتفكير خارج الصندوق، كلمات نردها ولا نمارسها - عادة - لأننا مقيدون في أسر ثقافات ضحلة ومجتمعات متخلفة! إذن ليس دورك أن تحبطه أو تجزم أنه ليس هناك حل، بل دورك أن:

- تبتكر حلولاً.
 - إعانة صاحب المشكلة على معرفة حدود مشكلته.
 - إضاءة أنوار في الآفاق المظلمة في عقله لعله يجد الحل.
 - إعانة صاحب المشكلة على اختيار أو قرار بمناقشة الاحتمالات المنطقية.
 - تهدئة الموقف.
 - تفريج الهم والكرب بالسماع فحسب.
- هذا بعض ما يمكنك فعله، فلا تبدأ بالجزم بأنه ليس هناك حل، أو تأخذ صاحبك في جولة محبطة تبثه همًّا فوق غم!
- ويساعدك على ذلك أن تخرج نفسك من طيات المشكلة إلى رحاب أوسع وسيأتي بإذن الله.

الحلول الجذرية أكثر من اللازم!

إن الطبيب الحاذق لا يقفز للجزم بسرعة إجراء عملية البتر إلا في مرحلة متقدمة من المرض أو إذا جزم استحالة علاج المرض... بل أحياناً رأفته بالمريض... يجرب ولو بدا له عدم النجاح، طالما لا يوجد خطورة في الحال أو المآل.

وإذا كان الجزم باستحالة التوافق بين زوجين بناء على اختبارات نفسية يعتبر خطأ، فما بالك بإعلان ذلك وتكراره على مسمع المستشير من بداية الاستشارة وبداية المشكلة؟

كذلك القطع بضرورة مقاطعة قريب أو صديق خطأ، أو اتخاذ موقف صارم له تداعيات مُشكّلة.

بل يستنفذ الوسائل بالترتيب الطبيعي أولاً ويتابع مع المستشير طرق التنفيذ لعله يجد نقط الضعف التي تسببت في فشل طريقة أو وسيلة من الوسائل فلا يحتاج إلى الانتقال لوسيلة أخرى بقدر ما يحتاج إلى إصلاح الوسيلة الأولى.

تذكر:

الاستماع بإنصات مستغرق يعينك أكثر من الاستماع بنصف أذن.

احذر الفتوى بلا علم!

ما أسهلها على اللسان وما أجمل وقعها في الجنان! فقط إن كان القلب ميتاً أو غافلاً عن مآل الإنسان.

الفتوى بلا علم آفة كل متصدر لأي فن، وكأن الكلام في دين الله أهون شيء على اللسان، ويوم القيامة حسرة وندامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

جاء في تفسير الجلالين: «﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ من تحريم ما لم يحرم وغيره» اهـ^(١).

فحتى لو كنت طبيباً نفسياً مؤهلاً للتصدر للعلاج فإن هذا لا يؤهلك للكلام في دين الله، بل الأصل أنك محتاج للفقيه يعلمك أحكام مهنتك، وأنت محتاج إليه لتعرف أحكام ما يخص مرضاك فيما يتعلق بالدين، فلا تظن أن الأمر يسير، فإن للدين فقهاً وللعلم

(١) تفسير الجلالين.

الشرعي آية، وكما تستنكر أن يكتب الفقيه دواء للمريض ويصف له الجرعات، فاستنكر من نفسك الكلام في دين الله بغير علم ولا تكن من الخاسرين.

مراعاة الأحكام الشرعية في سماع الاستشارات:

إن مراعاة الأحكام الشرعية مطلوب في كل وقت، لكن من تصدر لمسئولية فعلية الاعتناء بذلك أكثر، وعليه ألا يهمل السؤال عن دينه من يثق به ويتعلم منه، ولا يجعل دينه ومواقفه نابعة من الأهواء والقليل والقال، بل يتثبت ويفهم دينه جيداً.

- البعض يظن أن الاستشارة يباح فيها الغيبة والنميمة مطلقاً بلا حدود، فيقع في محذور شرعي.

- بعض النساء تستيح ذكر زوجها مع صديقاتها من باب الفضفضة ولا تراعي حرمة، ومن المؤسف أن تعاونيها على ذلك، والأكثر سوءاً أن تفسدي ما بينها وبين زوجها بكلمات ونصائح خاطئة لا تقف عند حدود الشرع، ولا تقدم حلولاً صحيحة.

- وقد يسمح بعض الأطباء والمعالجين بممارسة تفريغ نفسي بصورة فيها الكثير من الأخطاء الشرعية.

- بعض الأطباء والمعالجين يظنون أنه يكفي أن تكون تقنية العلاج مقبولة في الأوساط الطبية لتكون جائزة شرعاً، وهذا خطأ

كبير ينبغي إعادة النظر فيه والعناية بهذا الباب المهمل.

فينبغي على من تصدر للاستشارة أو من اهتم بسماع أصحابه وأحبابه أن يعتني بتعلم هذا الباب ويدرسه جيداً ويسأل أهل العلم فيه ابتداءً، ثم إذا عرضت له حاجة يسأل ويتعلم ويتحرى الصواب والتقوى.

• كذلك لا بد من السؤال وتعلم حدود ما يباح من استشارات بين الجنسين، فإن مجال الطب النفسي والاستشارات هو مجال يتناول الإنسان في أضعف وأوهى حالاته: حالة الحاجة النفسية الشديدة.

ونفوسنا يا قوم ضعيفة، والشيطان يوسوس، والنفس تبرر وتتعذر، فعلام نعرضها للفتن ثم نندم حيث لا ينفع الندم؟

فينبغي الحرص على الأحكام الشرعية وسؤال أهل العلم عما يجوز وما لا يجوز، وتقديم الورع الحقيقي كلما أمكن لا سيما في التعامل بين الجنسين.

لا تضع «كليشيهات» للرد على «كل» استشارة!

بعض الناس عندهم (كل) مشكلة زوجية لها رد واحد؛ (كل) مشكلة بين أب وابنه أو بين أم وابنتها لها رد واحد، (كل) مشكلة بين طالب(ة) ومعلم(ة) لها رد واحد!

وهكذا!

فلا فارق بين شخصية وأخرى، ولا بين ظروف وأخرى، ولا بين المشكلة نفسها ومشكلة أخرى.

فمنهم من يكون عنده قاعدة راسخة أن كل مشكلة زوجية تدخل فيها أم الزوج أو أم الزوجة فالحمة مخطئة ولا ريب، ومنهم من تكون الزوجة عنده مخطئة دومًا، ومنهن من تكون عندها الزوج هو المخطئ بلا ريب!

فبناء على هذا هناك (كليشيه) جاهز للرد، سواء مكتوب أو منطوق لا يجيد عنه صاحبه مهما تغيرت المعطيات! ولا يخذعك كيّ الحروف وتغييرها فالمعنى واحد متكرر سقيم! لا عدل فيه ولا عقل!

هذا ليس نقصًا في الإبداع ولا خللاً في العقل وحسب، بل هو خلل في فهم الواقع أيضًا!

لا تتحمل عنهم المسؤولية!

أعجبني في أحد كتب التربية مثال الفراشة والرجل المشفق!
 حين رأى الفراشة تجاهد للخروج من شرنقتها رق قلبه لها،
 وشعر أنها ضعيفة وبحاجة لمساعدة، فساعدتها في قطع خيوط
 الشرنقة، وأخرجها بسهولة!
 تلك الفراشة، لم تلبث طائفة إلا يسيرًا ثم سقطت ولم تحتمل
 الطيران وماتت!

حسنًا: لا تكن هذا الرجل!

ليكن همك غرس الشعور بالمسؤولية وتحملها، سواء كان من
 يستشيرك ولد أو والد، أو زوج أو زوجة.
 إن تحملك النفسي أو الفعلي أي نوع من المسؤوليات التي ينبغي
 على من يستشيرك أن يتحملها، يؤذه ولا ينفعه، وكذلك عواقب
 أفعاله، والتمكن من هذا الباب هو المربي الفاضل حقًا.
 إن له ربًّا ألطف بعباده منك بهم، فلا تقتل نفسك وإلا احترقت
 قبل أن تقدم يد المساعدة بجدية.

إن الله ﷻ خاطب النبي ﷺ فقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فلا يحملنك شفقتك بمستشيرك أو ولدك أن تتحمل عنه عواقب أفعاله.

والأكثر إيجابية أن تجتهد في غرس الشعور بالمسئولية فيه.

لست عليهم بمسيطر!

قاعدة قرآنية في غاية الأهمية!

إن كنت ممن تصدر لتعليم الناس العلم الشرعي، أو العلم الدنيوي، أو لنصح الناس، فاستحضر تلك القاعدة جيدًا.
وهاك تطبيقاتها فتأمل:

١- قل الحق الذي يسعدك يوم القيامة أن تراه في ميزان أقوالك وأفعالك، وثق أن الله بيده الهداية أو الضلال.

٢- أنت لست حارس الفضيلة ولا حارس الشريعة، أنت فقط
ترجو النجاة!

فإن تكلمت فقل الحق ترجو النجاة وإن لم تستطع قول الحق فلا
تخدع صاحبك بكلام مشتبه وتقول في نفسك هذا هدايته.

فقد وضع بعض الناس أحاديث على رسول الله وقالوا هي له لا
عليه، نحث الناس على خير، فأوبقوا دنياهم وأخراهم بذلك.

وكثير من الإعجاز العلمي فيه كذب وتدليس ومن يفعل ذلك
عامدًا يقول: إنما ذلك للإسلام لا عليه.

فالمراد: التدليس والكذب لا يأتي بخير بل هو الشر فإن كنت
ترجو النجاة فتنبه.

٣- قل نصيحتك ولا تكن سمجًا لحوًا تتبع أفعال صاحبك
وأقواله لينفذ ما «أمرته» به، لست عليهم بمسيطر وإنما هي
النصيحة، وقولك صواب يحتمل الخطأ، فلا تجزم بصواب نفسك
وتحمل الناس على رأيك.

ملفات صالحة للاستخدام.

بمعنى أن يكون لدينا ملفات مجموع فيها كلمات وعبارات ومعانٍ عن (الرجاء)، (الخوف المرضي)، (الخشية)، (الوساوس)، (المحبة)، (علاج العشق)... إلخ.

فإذا احتجت مراجعة معلومات لمجابهة مشكلة، نعود إليها فنتخير ما ينفع ويناسب.

وهذا يعني ببساطة أننا في خلال حياتنا نتصل باستمرار مع مصادر المعلومات من كتب ومواد مسموعة، ونجدد ملفاتنا باستمرار، ونغير أفكارنا ونجدد أفهامنا وإلا ظللنا أسرى دائرة محدودة وضيقة كالقبر!

وعلى قدر ما تتسع خلايا عقلك بحيوية المعلومات وعبثها في الخلايا الرمادية بفهارس كتبك وأوراقك بمنهجية صحيحة، على قدر ما ترتقي وتساعد نفسك وغيرك بحق لا بباطل!

لا تعتنق الأفكار مسبقاً!

لا شك أن تأثير أفكارك ونمط تفكيرك وما تمارسه من الحياة اليومية وآخر خبر سمعته، وخبراتك الشخصية ونفسيّتك، بل كونك ذكراً أو أنثى، تؤثر بشكل أو بآخر في تفكيرك ومواقفك وزاوية نظرتك للأمور!

لكن الكيس الفطن هو من يدرك أن عقله خاضع لهذا التأثير ويحاول يجد تنقية عقله بصورة مستمرة من الخضوع الأعمى لهذه المؤثرات بحيث تُعَمِّي بصره وبصيرته عن شيء من العدل والإنصاف الذي يعين على بذل نصيحة سوية.

فاتخاذ المواقف المسبقة خضوعاً لما في الذهن لا يفرز إلا نصيحة عليلة سقيمة، عديمها أفضل من بذلها.

وكثيراً ما يكون الصمت في هذه الحالة خير من الكلام، لكن يحتاج ذلك لشخص خبير بنفسه، رزين التفكير مدرك لمواضع ضعفه وقوته، يزن الكلام قبل النطق به.

فلا تكن خفيف اللسان أهوج النفس واجتهد في التفتيش بلا وسوسة خلف أبواب نفسك الموصدة، فإن في فتح هذه الأبواب

وتنظيف غرفاتها خير كبير، بخلاف من أقسم على نفسه ألا يلجها مخافة مواجهة النفس.

وعادةً المستشار الجيد هو من يفهم نفسه أولاً، إذ كيف يفهم غيره من فقد ذاته ونفسه في صحراء شاسعة مترامية الأطراف؛ يسير فيها على غير هدى وبلا دليل مرشد؟!!

أما الذي خبر تلك الصحراء وعرف واحاتها وخبر دروبها وتمرس في معرفة ليلها ونجومها والفروق الأساسية بين الصحاري والفيافي والقفار فصار دليلاً خبيراً، فهذا يمكنه إرشاد غيره للسير في صحرائه الخاصة به والنجاة من فخاخها وعواصفها ورمالها المتحركة!

بعض أنواع من الفكر المسبق في التعامل مع الحالات ينبغي توقيها:

- اتخاذ المواقف العدائية تجاه شخصية يعرفها مسبقاً بسوء.
- التعاطف المفضي إلى الميل عن الصواب، كتعاطف مع من يقصّ المشكلة، أو تعاطف مع النساء مطلقاً باعتبار الضعف المركب فيهنّ، أو التعاطف مع صديق.. إلخ.
- عكس السابق، وهو أن يعلم من نفسه إمكانية التعاطف فيقرر قبل البدء أنه لن يتعاطف فينحرف ويتطرف.

• شعارات كـ «لا للطلاق» أو «نعم للطلاق» أو «الصواب كذا» و «الخطأ كذا» ثم سماع المشكلة، وهذا الشعار ينبض في وجدانك فيصم عينك ويعمي أذنك!

• الغضوب قد يسيطر على غضبه مرة، والحليم قد يتجاوز مرة، والصادق قد يكذب مرة، والكاذب قد يصدق مرة... إلخ! ألا ترى أن النبي قال لأبي هريرة عن شيطان: «صدّقك وهو كذوب»^(١)، فلا تندفع خلف الحكم العام وتقرر أن كل تفصيلة ستخضع له حتمًا... إننا بشر ولسنا آلات تسير وفق برامج دقيقة!

• تصور المشكلة وفقًا للأفكار السابقة عن أحد طرفي المشكلة من خلال بيئته أو ظروفه أو غير ذلك.

وليست المشكلة في الاستنتاج أو وضع خطوط عريضة، لكن الكارثة حين تصير اعتقادًا جازمًا يُعمي ويصم.

• اترك لنفسك حرية التفكير والتحليل واستعن بالله أولاً، ثم بما عندك من خلفيات وأفكار مسبقة مع ترك مساحة من المرونة والتغيير بناء على ما يرى المستشار ويلمس لا ما يعتقد ويفكر فحسب.

(١) رواه البخاري.

إسعافات أولية!

أحياناً نكون في حاجة إلى إسعاف سريع وعاجل لمشكلة آنية، فتتم ممارسة «الإسعافات الأولية» للمشكلة حتى تصل إلى المستشفى فيتم العلاج الكامل.

لكن هذا لا يعني أن في كل مشكلة سيكون العلاج فيها بهذا الأسلوب، كذلك ضع في الاعتبار أنه لا يمكن أن يكتفي «مريض القلب» بمجرد إسعاف أولي دون متابعة دقيقة وعلاج منتظم.

أحياناً يقص عليك صاحبك مشكلة مع زوجته، هو يقص وقت تفاقم المشكلة وحدوث طارئٍ عرقل جريان نهر الحياة، فأدركت أن هناك مشكلة في سلوك أحدهما أدت وستؤدي إلى تكرار الحدث الطارئ.

أنت ها هنا بحاجة إلى أمرين:

١- علاج المشكلة الطارئة في أقصر وقت أولاً.

٢- علاج الخصلة المؤدية إلى تكرار المشكلة.

قد تحتاج إلى الإسهاب في الحديث عن المشكلة الرئيسية أولاً حتى تستطيع علاج المشكلة الطارئة، وقد تحتاج إلى السكوت عن

المشكلة الرئيسية حتى تعالج المشكلة الطارئة، وقد تحتاج إلى تناولها معًا.

هذا يخضع لعوامل كثيرة منها طبيعة طالب الاستشارة، وطبيعة المشكلتين، وتعلق كل منهما بالأخرى، ومدى علاقتك بالمستشير وإمكانية تكرار الجلسات.

والموفق من افتقر إلى الله فسد خطاه.

* * *

فروق ينبغي فقهها!

إن ديننا وفقهه كله فروق، السعيد من أدركها فلم يوقع نفسه وصاحبه في عنت أو تفسخ.

ولا شك أنه من خلال هذه الشذرات والإضاءات قد بدا لكم بوضوح أنه هناك فروق؛ بل الكثير من الفروق!

فهناك فرق بين الحزن على المعصية وتقطع القلب ندمًا وألمًا وتوبة، وبين أن يقنط الإنسان من رحمة الله ويجلد ذاته جلدًا يقعه عن الطاعة ويوقعه في براثن الشيطان.

هذان سلوكان متباينان لا يفضي أحدهما للآخر أبدًا، لكن يا صديقي مدخلهما متقارب فمن فقه دخل من الباب الصحيح ومن حاد انجرف في النفق المظلم!

وفرق بين الرجاء والتمني المذموم، وفرق بين الصبر والقسوة، أشرنا له من قبل، وفرق بين الفرح بنعمة الله ﷻ والبطر والأشر والتعالي.

وفرق بين الكبر الذي هو بطر الحق وغمط الناس وبين معرفة منزلة نفسه ومنزلة غيره، وفرق بين الرفق والمهانة، وفرق بين العفو

والذل، وفرق بين الانتقام للنفس وعزة النفس، وفرق وفروق كثيرة جداً كلما فقهتها كلما خبرت دروب تلك الصحراء.

والأصل المحكم المجمل الذي يعينك على إدراك الفروق وتوقي الانزلاق بنفسك وبمستشيرك إلى النفق المظلم الذي يجاور ذلك النفق المضيء المتألي هو قول ابن القيم: «والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه... ومنها أن ما أثمر إقبالاً على الله وإنابة إليه وذكرًا له وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك وما أثمر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان»^(١).

وكتاب الروح لابن القيم في المسألة الحادية العشرون؛ بعنوان هل النفس واحدة أو ثلاث؟ أسهب في بيان بعض الفروق ببراعة تجعلك لا تمل قراءتها وتكرارها وتتبعها وفقهها وفهمها بدقة، لعل الله يفتح برحمته باباً صديئاً من الإهمال فترى عالماً رجباً مبهرًا في تراثنا أهملناه طويلاً، فإذا أتقنته انتقلت لغيره من كتب العلماء والأئمة بلغتهم الفخمة، فانفتحت لك روزنة العلم بالفروق الدقيقة التي تساعدك في حياتك وفي نصيحة غيرك.

(١) الروح.

طبائع ينبغي إدراكها!

إن عدم مراعاة الفروق الفردية عند بذل النصيحة يؤدي إلى فشل أو نقص تحقيق المرجو من النصيحة.

فإن كانت طريقتك نجحت بجدارة مع هذا الفتى القوي الإرادة الذكي العقل، فلا يعني هذا أنها ستنجح مع هذا الفتى الضعيف المتكاسل!

والنصيحة التي يستطيع أن يطبقها إنسان حليم الخلق غير تلك التي يستطيع أن يطبقها سريع الانفعال.

وطُموح هذا الفتى أعانك على المضي معه في ذاك الطريق، في حين أن هذا الآخر لن يناسبه لأن طموحه مختلف.

لكل شخص طبيعة وسلوك وبيئة وفكر ونمط حياة، فلا بد من مراعاة كل ذلك قبل اقتراح حل معين قد يفضي إلى نتائج عكسية تمامًا.

كذلك طبيعة المرأة ليست كالرجل، وطبيعة من هو تحت العشرين غير من فوق الثلاثين.

بل البيئة والظروف والحياة تؤثر فطبيعة المتزوج(ة) غير

الأيامى، وطبيعة من له ولد غير من ليس له... إلخ.

فلكل واحد زاوية نظر، وطاقة نفسية، وطاقة بدنية، وظروف
تحيط به تتحكم في عوامل الاستشارة، وينبغي أيضًا أن تتحكم في
طريقة إجابتك، ونوعية ما تشير به على من استشارك!

التوبيخ شهوة!

إذا لمست من المستشير ندمًا فلا توبخ ولا تفرع ولا تقل (لو).

ولكن عضد شعور الندم الصحيح بلطف، فيكون وقودًا للتغيير، فإن ألم الندم المنبعث من داخله أقوى ألف مرة وأشد تأثيرًا وأطول وأدوم من ألم التوبيخ الذي غالبًا لو استخدمته في هذا الموضع فهو لحظٌ نفسك لا لمصلحته.

تذكر!

التوبيخ شهوة... فلا تنجرف خلف شهواتك، وإلا كنت أنت المستحق للتوبيخ!

أن تكون أنت في موقف القوة والشرف والصحة، وأمامك شخص ضعيف واقع في مذلة موقف ما!

وقتها يتحول التوبيخ إلى شهوة جارفة في نفسك تستمتع بالتقريع وتتشدق بالكلمات التي طالما قيلت لك في موقف مماثل، أو حتى لم تقال لكنك فجأة أصابتك لوثة الطهارة الزائفة والحمية المفتعلة، وحسن ظنك بنفسك ثم تُغلّف كل هذه السموم بغلاف مفتعل من الشفقة والرحمة، أو غلاف أنها غضبة لدين الله!

تذكر!

هذا نوع من النذالة والخسة!

واعلم أنها لو كانت لله، لكنت أكثر حرصًا على أن تفعلها كما

يجب الله!

* * *

هجومٌ سفيه!

كذلك لا تكن شخصًا عنيف الخلق، بارد المشاعر يهاجم في
سفاهة أمورًا لا ينبغي مهاجمتها!

ولا تحتفظ في ذهنك بردود مسبقة جاهزة تنتظر فقط ضغطة زناد
اللسان لتنطلق!

فامرأة تشكو أن زوجها تزوج فيكون الرد العبقري: هذه امرأة
رافضة لأمر الله، وربما وصل الأمر إلى أنها (كافرة) بحكم الله!

ومن يتحدث عن مرض أولاده هو شخص لا يرضى بقضاء الله!

ومن تشكو زوجها فهي بالتأكيد ممن يكفرن العشير!

ومن يشكو امرأته فهو سفيه ولا يستطيع السيطرة على بيته!

وهكذا يستمر المسلسل الهزلي في الهجوم بلا مبرر حقيقي على كل
من يتحدث دون أن يترك المستمع لنفسه فرصة للفهم أو العقل.

إنها ليست خبرة حقيقية!

• طبيعتك تختلف عن طبيعة غيرك، فإن كنت أنت قوي الإيمان أو ضعيفه، أو كنت هادئ الطباع أو سريع الغضب، إذا كنت من بيئة تستقبح هذا السلوك في عوايدها وما تألفه، إذا كانت تربيتك قد أهلتك لتحمل المسؤولية أو لا، إذا كنت أقررت في بيتك نظاماً معيناً لا تتحمل سواه... إلخ.

فهذا لا يعني أن الآخرين يعيشون وفق دائرتك الضيقة!
فلا تحملهم على ما تحب أو تكره، ولا بناء على ما تطيقه أو تضعف عنه.

كونك تحب أن ينصحك أحدهم بطريقة معينة، أو أنك تعشق أسلوباً معيناً وترتاح إليه، أو أنك جربت هذه الطريقة فنجحت... إلخ.
فهذا لا يعني أنها الصواب المطلق الذي لا ينبغي أن يحيد غيرك عنه، ولا يعني أن تتحول لبيغاء يكرر نفس العبارة بلا فهم ولا ملل.
والأسوأ أن تفرض ذلك على غيرك بإلحاح ينبئ برغبتك في استنساخ نفسك أفواجاَ فيمن حولك... أتعجبك نفسك إلى هذه الدرجة؟!

ثم الأسوأ أن تظن أن من يقاوم سلاسل إلحاحك هو المعجب

بنفسه المتكبر عليك!

أراض أنت عن نفسك وما تفعل؟!!

• كذلك التجارب الشخصية التي تمت في ظروف تحيط بها أو نتجت عن طبيعة لا تصلح للتعميم، لا ينبغي أن تجعلها قاعدة تقيس عليها وتنشرها بين الناس وكأنها هي الأصل.

وهذا من أسوأ ما يقع فيه الناس، وهو تعميم تجاربهم الشخصية «أنا فعلت كذا» أو «حدث لي كذا ففعلت أو شعرت».

والاستفادة من التجارب الشخصية مطلوب ومهم، لكن يحتاج إلى علم وسعة أفق، وكثرة ملاحظة، وخبرة للنفس ولمن حولك، حتى يمكنك الاستفادة منها بصورة صحيحة ومقبولة.

• فرض المشاعر الشخصية، «هذا لا يضايقني» و «هذا يؤذيني»، و «هذا يمكنني تحمله» و «هذا لا يمكنني تحمله»، وتعميم ذوقك الشخصي على الناس هو سلوك سيئ، ثم أن يكون النصيح بناء على ذلك فظلمات بعضها فوق بعض!

لا أقول قد يكون ذوقك هو الشاذ المنفرد فقط، بل أقول خلق الله أصابع اليدين مختلفة الطول والشكل! فكيف تجعلهم متماثلين إلا بقطع بعض ما يميز بعض الأصابع؟! مؤلم ونتائجه مفرعة!

أخرج نفسك من حيز المشكلة!

أنت لست طرفاً في المشكلة فلا تقتحمها!

إن المريض الذي يدفع طبيبه -لأنه آلمه- لا يتوقع الناس من الطبيب أن يرد الدفعة لهذا المريض، ثم يتحول الأمر إلى حلبة مصارعة!

لا تقحم نفسك في طيّات المشكلة، لا برؤية نفسك فيها فتتأثر تأثراً يحيد بك عن الاعتدال المطلوب للمساعدة، ولا بأخذ انفعالاتهم على محمل الإهانة لنفسك فتترك نفسك نهباً للاستفزاز والضيق.

أحياناً - لأنك بشر - يشكو إليك بعضهم من أفعال خاطئة أو سلوكيات قبيحة تقع أنت فيها، فتشعر بالإهانة.

عندها إن لم تكن قادراً على الخروج من دائرة المشكلة والنظر لها بطريقة ملائمة والنصح فيها لنفسك ولغيرك كما ينبغي، فلا تستمر في السماع والبذل، فأثر ذلك عليك مؤذٍ، وستؤذي صاحبك.

فعلام التأذي ونشره؟ سلامتك وسلامة قلبك وقلب صاحبك أولى.

الماء البارد!

من يعيش المشكلة فسيرها كبيرة جداً... عاونهم على ترك التهويل، ووضع الأمور في نصابها، والشعور ببساطة المشكلة، ومن ثم القدرة على حلها... قد يقال إن الجالس في مقعده الوثير المفضل في بيته الذي يقيه حر الشمس وبرودة الصيف ليس كمن غرق في ثنایا العقبات والأنات في صحراء الابتلاء نهارها حرٌ وليلها قُرٌّ.

حسنًا هذا صحيح، ولكن تقنية الماء البارد مفيدة أحيانًا.. أو كثيرًا!

هذا لا يعني أنك بارد المشاعر تعيش في صحراء جليدية، ولكن يعني أن الله وهبك قطعة جليد مهمة ومفيدة في هذه اللحظة تطفئ بها فورًا لهيب هذه النيران المؤذية، وتبرد رمادها.

والفرق ها هنا مهم فتنبه له، ليست قسوة ولا برودة ولا تعال.

وترك التهويل عامة مفيد ويعين على وضع الأمور في نصابها، ومن ذلك الباب أيضًا تحجيم المشكلة الكبيرة لمحاصرتها وكتبها والسمو فوقها، واستحضار الصبر عليها.

إن كلمات سهلة كـ«كبر مخك»، «عش الحياة ببساطة»، «تجاهل»، «ارم خلفك»، وأخواتها! هي في الواقع قطع ثلج ذات مفعول

ساحر، لا تنس أن تحمله معك في حقيبتك اللغوية!

فانتبه ألا يكون تفاعلك مع صاحبك مما يزيد شعوره بالمشكلة
ويجعله يغرق في لجج الرثاء للنفس حتى يختنق.

لكن ها هنا نكتة فتأمل!

ألا ترى أنك إذا كنت ممن يخاف الظلام فصحبك طفل يخافه قد
تصيبك شجاعة مفاجأة؛ تشعر بها تنبع من قلبك وتجري على
لسانك!

أحياناً تحتاج أن تلعب دور هذا الطفل لتفجر أنهار القوة من
قلب صاحبك.

قد تكون هذه تقنية أخرى مناسبة أيضاً، ولكن تحتاج إلى دقة في
التنفيذ وتوفيق في اختيار التوقيت وإن لكل مقام مقال.

مواطن القوة!

✓ أبرز مواطن القوة ووجه الاستفادة منها، فكل إنسان يحمل بداخله نقاط قوة ونقاط ضعف. فلا ينبغي أن يحرص المستشار نفسه في علاج نقاط الضعف فحسب، بل لا بد أن يجتهد في إبراز نقاط القوة ويوجه مستشاره إلى حسن الاستفادة منها.

فإن النفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، وإذا لم تنطلق في طريق الحق «بقوة» انشغلت بالباطل وعادت لضعفها، وقد تنشغل أثناء طريق الحق بهذا الضعف طالما أن انطلاقها لم يكن بالقوة اللازمة.

كذلك فإن علو الهمة وحسن الاجتهاد والحماس الذي يولده معرفة نقاط القوة والتميز وإبرازها في النفس والاستفادة منها، يساعد في علاج نقاط الضعف وترميمها في النفس.

✓ لا بد من مراعاة ألا يكون المستشار سبباً في كسر من عنده مهمة، لكن يُحسن التوجيه لما فيه صلاح أمره، ولا شك أن بعض الإحباط قد يكون مطلوباً لتصحيح مسار المستشار المنطلق بحماسة تجاه هدف سيكسره، وعندها فإحباطك له سيكون من قبيل الشفقة

مخافة كسر التجربة له كسرًا يعسر معه الجبر، ولكن أحيانًا يحسن تركه للتجربة إن كان أهلًا لها ومعاونته على تجاوز مفاوزها والتنبه على مواطن مهالكها وحسن إتيان دروب السلامة، كما أنه يحسن إن كان الكسر سيرًا أن تترك صاحبك يخوض غمار التجارب ويتقوى ظهره بها؛ كالفراشة التي تجاهد لتخرج من شرنقتها فتقوى المشقة أجنتها.

فإن وجب وقفه فسلامة نيتك وقصدك ويقظتك لعدم إقحام حظوظ نفسك في هذا الأمر يعينك على اختيار الوقت المناسب والأسلوب المناسب.

✓ أعطِ للمستشير إحساسًا بالمسئولية!

فالمسئولية تحني أعناق الرجال، وتغير سمّتهم وهديم ودّهم تغييرًا لا تفعله كلماتك،

وعضد فيه هذا الإحساس بقوة.

قد يكون مجرد إشعاره أنه هو الذي اختار الحل الذي يناسبه وأنه مفتقر إلى الله مستعين به وأن عنده من المميزات ما يعينه على تخطي العقبات ذلك، وقود تغيير جذري في حياته.

توجيه لا جبر!

الغالب أن دور المستشار توجيهي وليس جبريًا.

قد يقترح حلًا مباشرًا، أو يعرض الحلول ويترك لصاحبه حرية الاختيار مع توجيه خفي يرجح الكفة بحيث تبدو كأنها خرجت من نفس المستشار، أو يعرض الحلول المتاحة ويترك لصاحبه الاختيار دون توجيه، أو يناقش المتاح، أو يواسي فقط!

لكن في النهاية صاحبك بشر، له تفاعل مع الكلمات، وعنده خلفيات مختلفة عما عندك، بل عنده معلومات ومشاعر قد لا يستسيغ عرضها عليك.

قد تفهمها دون أن يتكلم، وقد لا تفهمها، فلا تتوقع أن تسير الأمور وفق توقعاتك وأن يسلم لك بقلبه وفعله!

فاجعل هامشًا مرنا في صفحة توقعاتك وتهيأ لذلك، وليكن همك أن يستفيد.

والقصد أن تعلم أنك تتفاعل مع بشر، سيتفاعل بدوره مع كلماتك وأنه قد يكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أو أسوأه، أو ما يهواه!

فأنت ناصح لا صاحب سلطان على أفعال صاحبك أو على قلبه!

فقط عليك أن تكون صادقًا نصوحًا مع صاحبك، فليس الدور المختار هو أن توافق هواه، وتقول ما يعجبه، فيأنس بك!

بل الدور الصحيح أن تقول الحق أو تنصح بصدق وتبين الخطر والغلط بيانًا شافيًا بالتصريح إن احتجت تصريحًا، أو بالتلميح إن كان يكفي صاحبك التلميح.

أو بإعطائه شبكة لا مجرد سمكة إن كان يصلح لذلك!

واعلم أن ها هنا موضع شهوة صريحة أو خفية وإني ها هنا لك من الناصحين!

فإن التصدر له حلاوة، من ذاقها أصابت قلبه بسقم أفسد عليه يقظته، وقطع عليه الطريق، فتعلق الناس بك وحاجتهم إليك وارتفاعك عنهم ولو قدر رمح؛ كلها من أمراض القلوب، فقد يقصر الإنسان في نصح أخيه ليحتفظ بحاجته إليه، وقد يوافق هواه ولا يقول الحق حتى لا ينصرف عنه، وقد يتشهى حملهم على ما يريد بلا مخالفة؛ وهي شهوة الرياسة والسيطرة.

والعاقل من حصن مقاتله فلم يصب منه عدوه مقتلاً على حين غفلة وفتور!

لا تُرِق ماء وجهه!

- لا تغتر بمحاولة المستشار عدم إراقة ماء وجهه!

فقد يظهر البعض تجلداً أو لا يبدو عليه الندم والحرقة، ولكن المستشار الخبير هو الذي يدرك ذلك من نظرات العيون وارتجافة الأيدي وكلمات مبعثرة هنا وهناك، وقد يفهم ذلك مباشرة من لا منطقية الموقف.

فزوجة تزوّج زوجها تعلن أنها سعيدة وتدعو غيرها لتزويج الأزواج، وتكرر ذلك ليل نهار!

هذا غير منطقي ويدل على قلب ينزف ويتجلد، أو أنها منتكسة الفطرة تحتاج إلى علاج!

فلا ينبغي أن يترك المستشار نفسه نهياً للاستفزاز، بل يدقق ليرى متى يضرب بِمِنبُضِهِ موضع الصيد فيريقه، ومتى يكتفي بمملطفات، أو حتى مَسَح موضع الألم أو تجاهله.

- التهديد بالطلاق والانتحار والردة مختلف عن الحديث عن حرارة الألم، فحكاية المشاعر والحديث عن حافة الجنون التي بلغها أو كاد، ليس تهديداً موجهاً لك لتغضب أو تعلمه الأدب أو تعرض عنه.

انتبه للفرق بين التنفيس عن مشاعر الألم والغضب الذي يمكن تجاوزه وتجاهله، وبين التهديد الذي يحتاج إلى تأديب.

وعدم إدراك الفرق قد يريق ماء وجه صاحبك بحمله كلامه على ما لا يحتمله، وإيلامه وهو يعاني.

بل عند التهديد بمثل هذه الأقوال الحمقاء، ثم تراجع عنها وانخاس كلماته؛ فالتجاهل وعدم الإشارة إليها من كرم الأخلاق.

• تفهم حاجات المستشار النفسية ورغبته الدائمة في الظهور بمظهر لائق، فلا تحاول دفعه للكشف عما بداخله أمامك بصورة مباشرة أو صراحة واضحة؛ فإن الشعور بالعري النفسي شديد الألم والوطأة، فلا تصر على استخراج أسوأ ما فيه وهتك أستاره وأسراره، ولا تكن فضولياً يتطلع إلى إشباع فضوله ومعرفة تفاصيل لا تخص المشكلة أو تخصها ولكن يمكن الاستغناء عنها.

• إنك تفهم وهو يفهم، فلا داع لأن نثبت قدراتنا على الفهم!

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

• وأقول صدقاً أن هذه من أصعب المواضع في ممارسة الاستشارات، فعادة يحاول المستشار أن يثبت ذاته وقدراته أمام

المستشير خوفاً من فقدان هذا الشعور اللذيذ بحاجة الناس إليك، فيستعرض ويستطيل، ولن أتحدث عن قدح هذا في الإخلاص... فالكل يعرف ذلك جيداً، ولكن حاول أن تذكر أنه هو المريض وليس أنت، وتذكر أنك تعالج حاجاته هو النفسية وليس حاجاتك.

• وتذكر أن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فأنت يا أخي بالنصيحة محسن فكن على جادة الإحسان ونقّ قلبك من الدغل.

هذب!

من لديه حديقة غناء، فعليه أن يعتني بها ويهذب الأغصان الشاذة، والأوراق الضالة، وينقيها من الأعشاب الضارة، واليابسات المبعثرة!

• أحياناً تلمس شيئاً من الكبر في نفس المستشار، فهذا يهذب وقد يحتاج لشيء من الكسر.

• ويعالج بمزيج من القوة والحزم مع كثير من الشفقة.

• فتفقد دوماً في قلبك وجود الشفقة، فإنها إن وجدت فالمرجو من صلاح نيتك وإصلاحك بفعلك أقرب من قلب ممتلئ بغلٍّ أو حقد أو غضب لا شفقة فيه.

• أحياناً يسيء المستشار الأدب، أو يصدر منه تطاول في حقك أو حق غيرك وأنت حاضر.

فهذا يحتاج إلى تهذيب أيضاً لكن تنبه! يصعب عليك تأديب قرين، فانظر المصلحة وقدم الأصلح.

• ومما ينبغي تهذيبه استخدام أسلوب التحريش بينك وبين

زملائك أو أقرانك، كأن تنصحه نصيحة لا تعجبه فيقول لك: لكن صاحبك قال كذا، أو زميلك قال كذا. هذا ينبغي العناية بتغييره وعدم الاستجابة له.

• كذلك النميمة عندك، كأن ينقل لك كلاماً ليستثير غضبتك ويقحمك في المشكلة.

• والبعض يحاول استخراج بعض الكلام منك بالبحث عن مدخل ملائم لاستثارة غضبك، فمثلاً إذا عرف أن المستشار صاحب ديانة، يبدأ يحدثه عن معاصٍ يفعلها الطرف الآخر من المشكلة ليستحوذ على ميلك.... حسناً هذا يستحق التأديب!

وفي المجمل المستشار مربٍّ، ينبغي أن يتعامل كالوالد الشفيق، ويحرص على تغيير ما ينبغي تغييره، ويختار الوقت المناسب والأسلوب المناسب، ويصلح قدر استطاعته ويكون له تأثيرات إيجابية وحسنة فيمن حوله.

بين الاختصار والتطويل!

بعض من يستشيرك قد يكون محتاجًا إلى اختصار ودقة في الصياغة وإجمال، وبعضهم يحب الإسهاب والإعادة، فمراعاة ذلك ما استطعت، وسمح وقتك وجهدك يعد من محاسن جهدك.

كذلك فإن البعض يريد أن يسمع كلامًا واضحًا فاصلاً، والبعض يفضل أن تترك له خانة اتخاذ القرار وتناقشه فقط مناقشة حرة تعينه على اتخاذ قراره بنفسه.

أحيانًا يحتاج المستشار ألا تطرح عليه طرحًا مباشرًا، فتكتفي بأسلوب غير مباشر يشعر المستشار أنه هو الذي اختار، هذا يتعلق بشخصية المستشار نفسه أيضًا، وليس فقط طبيعة المشكلة، فحتى لو كان الحق واضحًا والباطل أوضح منه، فقد يكون المستشار بحاجة إلى بيان إيجابيات الحق وسلبات الباطل، وطرح ذلك بأسلوب توجيهي لطيف يأخذ بيده إلى أن ينطق هو بلسانه أنه يريد الحق ويرفض الباطل.

ثم يتحول الطرح بعد ذلك إلى دعم إرادة المستشار، وذلك بتعليمه أولاً ثم ثانيًا ثم ثالثًا: حسن التوكل على الله؛ بالأخذ بالأسباب، وحسن اختيارها، مع كامل الاعتماد عليه ﷻ، وصدق

اللجوء إليه بإعلان الافتقار الكامل إلى الله، واليقين أنه هو الغني الحميد ثم حسن الاستعانة به عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إذن قد يكون دورك أن تعرض المسألة بلسانك بأسلوب مختلف وبيان الحق والباطل فيها، وعرض الحلول المتاحة مع بيان سلبيات وإيجابيات كل حل، حتى لو كان الحل خطأً في رأيك؛ تعرضه بأسلوب يضعفه... ثم تترك الفرصة بذكاء للمستشير أن يعلن هو عن اختياره الصواب وحاجته الماسة للعمل به.

لكن هذا لا ينبغي أن يخضع فقط لرغبات المستشير بل لا بد أن يخضع لعدة عوامل منها:

- طبيعة الأمر الذي يناقش، فهناك أمور نسبية وهناك صواب وخطأ بلا فصال، وعادة مساحة الأمور النسبية أوسع ولو كان الخطأ فيها أرجح من زاوية معينة.

- كمّ المعلومات المتاحة، وننتبه هنا أن المعلومات التي تحصل عليها ليست دائماً صادقة أو دقيقة أو كاملة. وهذا يُعرف من خلال ظهور تناقض أو طبيعة المتحدث وقدرته على التعبير أو حتى من خلال طبيعة الموضوع وملاحظة كونه غير منطقي أو أنه محرج بما

يكفي لتستنتج أن هناك تفاصيل لم يستطع صاحبك إخبارك بها على وجهها.

• سلوك المستشار في عرضه للمسألة، فمن يثرثر كثيرًا غالبًا يحتاج نفسيًا إلى أن تثرثر معه وتكرر وتعيد، بخلاف من يختصر.

لكن هنا أمر ينبغي مراعاته وهو أن إشباع حاجة المستشار في الثثرة أو الاختصار ليست دائمًا صائبة، فقد يهوى الثثرة ويكون الصواب أن تختصر الجواب في كلمة واحدة!

✓ يحتاج الموسوس عادة إلى الاختصار والوضوح، ويحسن أحيانًا التكرار أو تكرار المعنى.

لا تقع على كلمات الكتب بالصمم والعمى!

بعضنا يحصر نفسه في ركن ضيق من كتاب، لا يتفاعل معه ولا يضيف ولا يبدع في فهمه وتطبيقه، ولا يضيف عليه خبرة جديدة! وبعضنا يتعامل مع المكتوب بجمود إن قيل إن: «هذا خطأ» ألحق به كل ما يشبهه دون فقه وفهم حقيقي إلى وجه الشبه الذي به يلتحق الفرع بالأصل!

كل درجات الأحمر عنده أحمر، وكل درجات الأسود أسود. رغم أن من الدرجات ما يؤذي العين ومنها ما يبهجها، ومنها ما تستحسنه نفس دون نفس.

وينبغي التنبيه على أن ليس كل مكتوب يصلح للتطبيق فضلاً عن صحته، وليس كل صحيح يصلح لمجتمعاتنا أو يصلح لكل الحالات.

وكم تسبب التعامل السيئ مع الكتب إلى استيراد مشاكل كنا في سعة وغنى عنها، وسيأتي الحديث عن كتب علم النفس والتربية والتنمية البشرية.

فأضف لمساتك وخبراتك، ومارس وجرب بحذر وشاور أولي

العقول والنُّهى والخبرة والعلم، فالحوار وسيلة مهمة لاكتساب خبرات لم تلمسها يديك ولم تخطُها قدميك.

وليكن زادك في فيافي الكتب المشهود لها بالفائدة بعد الاستعانة بالله مزيجاً رائعاً من المرونة والعمق، وأن يؤخر البتَّ في الصحة والفساد والصواب إلى حين.

لا تكن قَسَّ اعتراف!

بعض الناس يمارس نوعاً من التخفف من الشعور بالذنب بحكايته، فتهدأ نفسه ويستطيع ممارسة حياته بصورة طبيعية! حسناً، هذا خطأ ولا ينبغي أن تشارك في ذلك الخطأ!

لا شك أن هناك فرق بين جلد الذات، وبين الندم والشعور بالذنب الذي يؤلم فيمتلأ القلب بذلك الألم الصّحي فيكون وقوداً لتوبة وصلاح وإصلاح!

بخلاف جلد الذات الذي يؤدي إلى اليأس من رحمة الله والقنوط وترك العمل الصالح، والمزيد من العمل الطالح! واستصحبها هنا الفرق بين إلقاء الملك وإلقاء الشيطان المذكور عن ابن القيم من قبل!

والحقيقة المؤسفة أن كثيراً منا يمارس دور قس الاعتراف؛ لأن صاحبه يمارس جلد الذات، فيترك صاحبه يقص عليه الذنب وتفصيله، ثم بعد ذلك إما يرد ردّاً حليماً هادئاً لكن يهدده ويهدئ روعه حتى يسكن، أو يبدأ في تقريره وتأنيبه وعتابه و«وعظه» ليبيكا

سويًا على الذنب... حتى يسكن أيضًا!

والاثنان على خطأ! وكلاهما يمارس دورًا لا يختلف كثيرًا عن دور قس الاعتراف في الكنائس.

نحن لا نمارس الاستشارات كمسكنات حينما يتطلب الأمر إعطاء المريض علاجًا حقيقيًا:

١ - وقف مهزلة المجاهرة بالذنوب طلبًا للمعافاة لقول النبي ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفِي إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فيقول: يا فلان، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»^(١).

فالحديث عن الذنب وتفصيله بقدر الحاجة كسؤال عن كيفية التوبة أو التخلص من الذنب، أم ذكر تفاصيله سواء للتلذذ أو التخفف فهو مجاهرة.

أتدري لماذا؟ لأن المطلوب أن تتألم ألمًا يدفعك للترك والإصلاح، وليس المطلوب أن تخفف الألم فتستمرى الذنب، كما أنه ليس مطلوبًا جلد الذات فتقبع في بئر الذنب.

(١) رواه البخاري.

٢- علمه كيف يتألم ألماً صحيحاً لا جلدًا للذات، علمه أن الندم توبة، وأن السجود مع الندم له لذة، وأن البكاء من خشية الله ساجدًا ذليلاً منكسرًا خاشعًا هو من أفعال المؤمنين المحبين الصادقين، علمه أن يحمل همه وحزنه ووجعه ويتأوه مناجيًا ربه، رافعًا يديه، خافضًا عينيه، مكسور القلب، يطلب من ملك الملوك الجبر والمغفرة.

٣- علمه الفرق بين إلقاء الملك وإلقاء الشيطان.

٤- علمه الخشية والرجاء والمحبة.

٥- علمه طريقة الإقلاع عن الذنب، وكيف يقوي إرادته، وكيف يستعين بالله، وكيف ينشغل بالنافع والطاعات.

٦- لا تؤنب من جاءك متألمًا بذنبه، فإنك تفسد ولا تصلح، من جاءك متألمًا فهو محتاج لسماع كلمات عن الرجاء، لأنه الآن يشعر بالخوف، فاضبط الميزان حتى لا يسقط الطائر جريحًا لعجز جناحه الأيمن! واحرص على أن تصلح رأسه: المحبة، فإن طائرًا بلا رأس هو طائر ميت!

٧- لا تخفف شعوره بالندم، بل عضده، لكن وجّهه توجيهًا

سليماً كما سبق، واترك صاحبك يتفاعل مع نفسه في الطريق الصحيح، وكن حريصاً على تعديل مساره كلما انحرف بسبب الشيطان، فإنه قاعد لنا على رأس كل طريق صالح.

إنها ليست مسابقة!

لا تسابق صاحبك في استنتاج الأحداث، ولا تحليلها بل أعطه فرصة ليتكلم ويقص الحدث كاملاً.

البعض يسابق من يحدثه ويستبق الاستنتاجات ويطرح الأفكار التي غالباً مبنية على كون هذا المستشار أخرج أحق لا يفهم شيئاً من الدنيا وليس عنده ولا مثقال حبة من خبرة في الحياة!

لا تكن إجابتك كقصر التيه!

لا تستغرق في تحليل الماضي إلا لحاجة في المستقبل كالاستفادة من خطأ أو نحو ذلك، فالتحليل لتمضية الوقت والتسلية والتعمق والفلسف ليس أمراً محموداً!

كذلك لا تقل معلومة إلا لفائدة، بل الإضافة في الإجابة لا بد أن تتعلق بالموضوع!

فمستشير يتساءل: كيف أرقق قلبي؟ كيف أتخلص من ذنبي؟

قد يضاف له شيء من الكلام عن علو الهمة أو عن الصبر على

الطاعة أو عن المصابرة ومراغمة الشيطان... إلخ.

لكن احذر! لا تصنع له شبكة من الاستعراض والاستطالة، يشعر معه بالتيه والحيرة بلا فائدة مرجوة! حتى لو كان ما تذكره صحيحًا.

وإجابة الأسئلة فن يحتاج إلى فكر وممارسة وفقه عميق وخبرة واستفادة من الخبرات، وقد ذكر بعض أهل العلم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان أفضل من يمارس هذا الفن، أعني فن الإجابة على السؤال فيضيف بعض الأمور المتعلقة المفيدة والتي قد تبدو للناظر في نص السؤال لوهلة لا يُحتاج إليها، لكن مع التدقيق تدرك الدقة والعبقرية في اختيار الإضافات فكأنه يروي غليل السائل بأكثر مما تمنى هو نفسه.

وكم من إجابة ثرية ومفيدة وهي مع الأسف خارج الموضوع أو على الأقل لا تطرق الجوانب الهامة في نفس السؤال أو المتعلقة به.

فاللهم ألهمنا رشدنا وعلمنا ما ينفعنا.

موهبة وتركيز!

التفاعل الإنساني عامة، من فهم الناس واختيار رد فعل مناسب يحتاج قدرًا من الموهبة مع التعلم والممارسة والخبرة، بل حتى الطب النفسي يحتاج إلى قدر موهبة، والفشل رفيق صادق لمن غفل عن هذه الحقيقة البسيطة!

هذا القدر من الموهبة التي لا يد للإنسان فيها يساعد على الأقل على معرفة متى يتوقف!

بعض الناس نافذ الصبر، أو يعاني من روح صماء عاجزة عن التفاعل أو النفوذ إلى عمق محدثه، أو يعجز عن التعبير عما يشعر به أو يلمسه، والبعض ينحرف فهمه باستمرار إلى سوء الظن، أو يبني فهمه ونصحه على قواعد شاذة قد لا تلائم أحدًا سواه.

على كل حال حتى مع وجود تلك الموهبة فنحن بحاجة إلى تعلم تحليل السؤال أو القصة بتركيز.

إن السائل عندما يطرح سؤاله فإنما هو يقدم ما في ذهنه في وعاء من الكلمات، هذا الوعاء يحمل داخله إشارات مهمة جدًا لا بد أن

يلتقطها المستشار ليفهم ما يحتاج المستشار، وكل كلمة لها صدى ورجع، سواء كانت مقصودة أو زلة لسان.

فكلمة معينة قد تكشف عن إحباط صاحبها، فيحتاج إلى إضافة عن المهمة أو رجاء رحمة الله تعالى، وكلمة أخرى قد تكشف بدقة موضع المشكلة بالضبط، وهناك كلمات تدل على معاناة صاحبها وضياعه، وكلمات تدل على كبره وغروره، وكلمات تدل على تناقض أو كذب أو نقص... إلخ.

وكثيرًا ما تكون المشكلة غير محتاجة لـ (عمل) ما لمواجهة بقدر ما هي محتاجة إلى التخلص من (داء) ما تظهره الكلمات.

ألا ترون أنه قد يقص عليكم شخص قصة طويلة عن إخفاقات متتالية ويكون حله في حسن الافتقار إلى الله، أو الإخلاص إليه، أو ترك الكبر والغرور، أو إعادة النظر في نوعية الأسباب المستخدمة؟! فيكون الحل المفضل ذلك أولى من مناقشة آحاد وتفصيل القصة.

تمامًا كطبيب يشتكي له المريض من عدة أعراض تبدو منفصلة، لكن الحاذق يدرك فورًا أنها جميعًا إن اجتمعت فهي عرض لمرض معين واحد، فيعالجه ويترك العناية التفصيلية بكل عرض إلا من باب تسكين

الآلم حتى يزول السبب الرئيسي فتختفي الأعراض جملة.

وكثيراً ما يعين هذا التحليل على معرفة أن من أمامك يعاني أزمة نفسية حقيقية تحتاج طبيباً متخصصاً قبل فوات الأوان أو أن لديه عزمًا على فعل أحق، فتترك عندها بنيات الطريق وتقبل على الهدف بدقة فتعالجه!

كذلك في كثير من الاستشارات قد تكون الإجابة خارج النص المكتوب أو المنطوق فتحليل الكلمات يفتح أفقاً خارج الحدود الضيقة التي قد نحصر أنفسنا فيها.

وهذا التحليل لا يقتصر على الاستشارات بل من المهم جداً أن يمارسه من يشتغل بالإجابة على الفتاوى أيضاً، فكم من سؤال أراد به المستفتي أن يحصل على فتوى بعينها فاستطاع أن ينتزع من المفتي ما يريد لعدم إدراك المفتي مرمى صاحبه.

وكذلك في باب الاستشارات، كثيراً ما يكون الهدف من الاستشارة الحصول على ضوء أخضر في اتجاه معين خاطئ، ليخوض غماره ثم يبرر فعله ببراءة: كذا نصحني فلان! أو قد صوب فلان فعلي فلستُ بمخطئ!

وهذه الطريقة تعينك أيضًا عند صياغة كلماتك ومعرفة وقعها،
فإن أسيء استخدامها بعدُ فمعلوم أن سوء الاستخدام لا يُضمن!

إذن، هذا التحليل يعين المستشار على حسن التفاعل، ويعتبر
بوصلة مهمة تحدد الجهة التي ينبغي التوجه إليها، ولو كانت هذه
الجهة دلالة على غيرك ليستشير!

تذكر!

لا ينبغي التمسك بالاستمرار في علاج قد يكون سبب فشله
غالبًا وجودك أنت!

وهذا باب مهم جدًا وشائك جدًا، والكلام عن فوائده يطول...
ولكن ممارسته مع الاستعانة بالله لها نكهة مختلفة، نسأل الله أن يرزقنا
البصيرة الثاقبة والفراصة الصادقة.

وأخيرًا أقول: إذا لم تكن متمكنًا من مهارة الاستنتاج وتحليل
السؤال، فلا تخض البحر الخضم من غير سفينة، وليس لك ها هنا
إذن إلا ما يظهر من السؤال، فاقرأه بعناية وأجب عن السؤال عينه لا
عن غيره ولا ما وراءه، ولا تتحلق فتزلق في مفاوز الهلاك!

قوة قلب!

إن استخدام الحيل النفسية في التعامل مع الآخرين لا يحتاج إلى معرفتها وحسب، بل يحتاج إلى جرأة قلب وجسارة!

لا ننكر أن قلة من الناس هو من يوقن في الحيلة المعينة يقيناً يعينه على تطبيقها باحتراف، فإذا كان معلوماً عندك أن من يقرر الانتحار أو يعزم على الطلاق لا يصدر تهديدات حمقاء جوفاء وأن من يملأ الدنيا صراخاً: سأنتحر! سأنتحر! فإنه غالباً يريد فقط أن يجدكم حوله تبكون وتجتهدون في إثناؤه عن الانتحار!

وإذا جربت أن تجلس مبتسماً واضعاً إحدى قدميك فوق الأخرى في لا مبالاة وتقول له: افعل إذن! أو تتجاهل هذا الحمق، أو تؤدب في موضع التأديب أو غير ذلك.

أو تناقش بهدوء عواقب اقتراحاً أحمق حتى يتبرأ منه صاحبك في هلع!

بيد أن من يعاني ضعف القلب ويصاب بالهلع لأقل إشارة؛ يفسد أكثر ما يصلح، لكن ها هنا دحض مزلة، فكم من قوي القلب في غير موضعه، غير متقن للحيلة ولا لديه معرفة حقيقية بعواقبها، ولا يستطيع أن يبصر موضع استخدام الحيل الحقيقي من عدمه.

لا تبخل بمعلومة طالما وضعتها في موضعها

«الفاعل مرفوع، والمفعول به منصوب»!

هذه العبارة قد لا تضيف عند كثير من الناس مزيد معلومة ولا فائدة، لكنها قد تكون مهمة جداً في موضع معين أو عند شخص معين! انتبه حين يكون صاحبك بحاجة إلى إعادة تذكير بمعلومة بسيطة، أو يحتاج إلى معرفتها ابتداء وأنت تظن أنها في موضعها لكنها معروفة.

لا تكن مثاليًا في ردك... قل شيئاً ممكن التطبيق!

قالت لي يوماً بحذر: أليست تلك الدروس التربوية «مثالية أكثر من اللازم»؟!

بلى! مثالية أكثر من اللازم!

وليس فقط الدرس التربوي هو ما يعاني من هذه المثالية؛ بل كثير من المحاضرات المتعلقة بالحياة الزوجية ومجالس الوعظ! بل كثير من الاستشارات تفترض وتنطلق من القمر محلبة إلى

خارج المجرة، ناسية أننا نحيا على كوكب الأرض الملوث بالأتربة
وعوادم السيارات!

كثير من المستشارين يقول أشياء غير ممكنة التطبيق، فقط لكيلا
يترك الورقة بيضاء!!

وهذا خطأ!

قد يكون الصمت للتفكير أو قول: لا أعلم، أو الإحالة على
متخصص مبدع؛ أولى وله وقع أفضل من قول ما تسود به
الصفحات بلا فائدة!

فعند الإجابة لا بد أن يكون الحل ممكن عملياً وليس كلاماً مثاليّاً
يصلح كنظرية أثرية في كتاب أو ليعلق على الجدران.

إن مثل الذي ينصح نصيحة مثالية أكثر من اللازم كحال هذا
الشاعر الذي قال:

وكأننا ونحن جلوس والماء قوم جلوس حولهم ماء
ومن أنواع الردود المثالية وسيأتي بإذن الله تفصيلها وتماها في

ثوب قشيب تقلب ظاهره وبطانته حتى تستوفي منه مأربك:

• المطالبة بمعاكسة الفطرة (يقول للمرأة: لا تغاري إن تزوج زوجك!).

• ما يتضمن أوامر معروفة بلا وسيلة واقعية لتطبيقها (يقول لسريع الانفعال: الغضب سلوك سيئ، نعم سلوك سيئ فما الحل؟!).

• تأنيب على تمني مطالب مشروعة (كمن يؤنب الشباب على استشراف الزواج!).

• المطالبة بالصبر على ما لا يصبر عليه (اصبري على زوجك الذي لا تطيقينه! ثم تُفتن بنصيحتك؟).

• اعتبار الحاجات النفسية رفاهية (المودة والألفة وحسن العشرة بين الزوجين رفاهية، يكفي الطعام والشراب فقط!).

• التهويل لإقناع المستشار بأمر فوق طاقته! (فيحول المكروه حرامًا، والحرام كبيرة، والكبيرة من أكبر الكبائر، ويجعل كل مخطئ مذنب منافقًا!).

وهذه أمثلة وشذرات في الأفق هنا وهناك، فتصبر بها حتى تشرق شمس المعرفة في نفسك، فتنير قلبك، وتدفع عقلك!



فصل عمق... ولآلى

«إن الهزيمة النفسية التي تسلت في جنح الليل إلى النفوس أدت إلى استيراد الأفكار والمبادئ بدعوى أن اطلبوا العلم ولو في الصين... إنه شعور بالنقص كان يفترض أن يُرتَقَّ بمزيد من البحث والعمق والفهم للقرآن والسنة والسير والتراث العبقري! فرتقوه بليّ اللسان باللغات الغربية وليّ السميت بالسلوك والطبائع الأجنبية. ثم هتف من اعترته حمرة الحياء خشية أن يظهر بمظهر المهزوم».

«يا سادة أنا مستفيد من الغرب فقط مع اعتزازي بتراثي!... ولكنه لا يدري عن تراثه ربع ما يتقنه عن الغرب!

نسوا أن لدينا تراثاً كاملاً يحتاج - لا... - بل نحن من يحتاج إلى العناية به ودراسته، فإن الذرة من علومنا ذات الطابع الأخلاقي والسلوكي المنضبط بضوابط الشرع هي التي نمت منها علوم الغرب ثم انحرفت في بوتقتهم بما يلائم من لا يهتم بالقيم الصحيحة والعقيدة السليمة.

ومع هذا صار في كثير من الأذهان أن المفكر الغربي عبقري لكن العبقري العربي عفا عليه الدهر في صحراء النسيان!

وتالله لا أبرئ نفسي، بل لعلّي أقيم عليها الحجة بهذه الكلمات!«^(١).

(١) مقتبس - مع تعديل - من مقال لي قديم.

فهذه لآلئ مقتبسة غالباً من تراثنا على استحياء، اجتهدت للاختصار، وإني لأرجو لعلها بذرة لمن رام تأملاً أكثر عمقاً وصبراً على استخراج الكنوز الدفينة.

- ١- لا تعطه أداة تؤذيه!
- ٢- لا تكن كصويجات امرأة العزيز!
- ٣- انتبه للثوابت!
- ٤- سيقتلوك إذن يا أحمق!
- ٥- لا تنشر لسانك كما تنشر الأفعى رأسها!
- ٦- وجه انتباهه إلى السؤال الأهم!
- ٧- تقويم سلوكك لا تغيير ظروف!
- ٨- إنه يحترق!
- ٩- الغضب!
- ١٠- خاطرة: الكلمة مسئولية!
- ١١- واقعية لا مظهرية فارغة!
- ١٢- البغي والكلب!
- ١٣- أتحبه لأملك؟!
- ١٤- وقفات مع حديث الفضل ابن عباس.

لا تعطه أداة تؤذيه!

حين قال نبي الله يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، لم يكن يظن وقتها أنه يمنحهم المكعب الناقص ليكتمل في أذهانهم بنيان الجريمة!

أحياناً نغفل عن الخطر الحقيقي، ونتسبب في إعطاء المستشار تلك الأداة التي بها تكتمل أركان المشكلة.

لا شك أن كل شيء بقدر وأن كل قدر الله خير، لكن على قدر استعانتك بالله ويقظتك، يمكنك ألا تكون سبباً مباشراً في كثير من المشكلات، بكلمات أو أفعال ولو لم تقصدها.

لا تكن كصويحيبات امرأة العزيز!

بعض من يستشيرك قد يكون كامرأة العزيز، لا يرغب في نصيحة بقدر ما يرغب في تبرير فعله وجذبك ليمرغك معه في طريقه الموحل! فإن كنت يقطاً مفتقراً إلى الله، حريصاً على تقواه، ومعتزلاً بضعف نفسك، غير متعال، لا محسن الظن في ذاتك وقدرتك على الخلاص، فلن تكون كصويحيبات امرأة العزيز حين أقرن لها بالعدو ثم نافسها لبلوغ ما تستشرفه النفس من السوء. وقبل ذلك تذكر:

لولا معاييرهنّ لها ما نصبت لهن الفخ!

انتبه للتوابت!

ألا ترى أن خليل الرحمن إبراهيمؑ، لم يدفعه كفر أبيه إلى العقوق وترك حفظ حقه!

إن الله ﷻ قص علينا قصة ذلك الحوار الرائق بين الولد المؤمن الذي بلغ من الإيمان شأنًا يعد أعلاه في البشر، وبين الوالد الكافر الذي لم تضعفه مشاعر الأبوة الفطرية عن الغلظة والقسوة مع ولده إذ آمن الولد.

• فلا يدفعنك غضبك تجاه شخص - ولو كانت غضبتك لله حقًا وصدقًا - أن تقر ما يخالف الشرع، أو أن تدفع صاحبك إلى فعل ما يخالف الشرع تجاه ذلك الشخص.

وهذا أمر عسير إذ فيه من مخالفة الهوى الشديد ما فيه، أن تبغض شخصًا وتوقن أن ذلك البغض في الله حقًا، ثم تحفظ حقه الذي أحقه الحق، وتنصح صاحبك بذلك!

إني أغبطك إذن!

فيا لسعادة من خالف هواه، ومنعته تقواه من الانحراف عن حكم الشرع، فإن لم يجد عزمًا، أمسك عليه لسانه، فإن الصمت

نجاة، وكما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(١).

وكم من نصيحة فرقت بين زوجين، أو قطعت رحمًا، أو تسببت في دفع ولد لعقوق، أو زوجة لنشوز، أو زوج لظلم تجاه زوجته.

وكم من بيوت خربت بكلمة في جلسة من جلسات النميمة المسماة زورًا جلسات النساء وقهوة الصباح!

وإن الرضا قطعة من الزجاج البلوري، تكفي أن تمسه يداك فتفسد شفافيته.

• وهنا وقفة ينبغي التنبيه لها:

أحكام الشرع لها فقه وطرق يعرفه الفقيه، فإن سمح كل واحد لنفسه أن يفتي بناء على ما يفهمه من آية أو حديث ولو زعم أنه طالب علم، أو يظن أن حضور الدرس والدرسين وقراءة الكتيب والكتابين يكفي لتأهيله للفتوى والفقه، صار الأمر فوضى!

(١) رواه البخاري.

فضلاً عن الخلط بين عقلك أنت وبين أدلة الشرع، وكثير من الناس يظن أن ما يستحسنه ويراه جيداً وملائماً أو ما تربى عليه في بيئته واستحسنه الأعراف، ينبغي أن يكون هو حكم الشرع، فينشر ذلك وينصح الناس بناء عليه، فيهدم ثوابت كثيرة، ويخلخل أحكاماً ثابتة يعرفها أهل العلم فيحل حراماً أو يحرم حلالاً، ويغدو المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

• وَصَّعْ نَصَبَ عَيْنِكَ مَا حَدَثَ هَا هُنَا: حَفِظْ وَاحِدٌ مِّنْ بَلَّغَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ حَقَّ وَاحِدٍ مِّنْ أَنْزَلَ فِي دَرَكَاتِ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ فَكَانَ مُسْتَحَقًّا لِلْبَغْضِ فِي اللَّهِ، وَمَعَ ذَلِكَ حَفِظَ لَهُ حَقُّهُ!

فكيف بك مع حقوق الناس وأنت لست كخليل الرحمن ولا عامة من حولك كأبيه الكافر الصادّ عن سبيل الله، ولهم من الحب في الله نصيب طالما هم من أهل الإسلام؟!

وانظر إلى قول ابن تيمية: «وأنتم تعلمون أن الصديق الأكبر في قضية الإفك، التي أنزل الله فيها القرآن حلف لا يصل مسطح بن أثاثه؛ لأنه كان من الخائضين في الإفك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾
[التوبة: ٢٢]، فلما نزلت قال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فأعاد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق»^(١).

فهذا مسطح بن أثاثة ارتكب جرماً نزل فيه قرآنًا! وأصاب حدًّا، «وقد ولق ولقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها»^(٢)، «وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه مع خلقه مع ظلمهم لأنفسهم»^(٣).

فمن الثوابت ألا تقول بلسانك هو مسلم، ثم أنت تعامله بغيض كبغضك كافرًا، بل وتسحب منه حقوقًا أقرها له الشرع ولو كان كافرًا!

يقول ابن تيمية: «والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب، ولم تكن الذنوب عن نفاق؛ كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب حديث حمار الذي كان يشرب الخمر وكان النبي ﷺ يقيم عليه الحد

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية.

(٢) المصباح المنير.

(٣) السابق.

فلما كثر ذلك منه لعنه رجل فقال النبي ﷺ: «لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله...» (١).

• وها هنا لفظة مهمة وكأني أهديك مرآة فتتنظر فيها إلى حالك وأنت تجعل الثوابت هي ما تراه أنت حقاً وحسب، من اجتهاد شيخك الفقهي أو مما تزعم أنه اجتهادك، ثم تنصح الناس وتعامل مع غيرك وكأنهم خالفوا الجادة، بل كأنهم مرقوا من الدين كما يمرق السهم من الرمية!

هل تراك أصبت؟

قول ابن تيمية: «ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مصيباً، أو مخطئاً، أو مذنباً... فالأول: مأجور مشكور، والثاني مع أجره على الاجتهاد: فمعفو عنه مغفور له، والثالث: فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين» (٢).

فكيف تحقق حق من قلّد عالماً أو إماماً ممن تبرأ الذمة بتقليدهم،

(١) قاعدة في المحبة، ابن تيمية.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية.

وأنت إن كنت مجتهدًا فجزمت أن مخالفك مخطئ فأنت تشهد له بالأجر
مع الخطأ، فكيف وأنت مقلد مسكين لا تدري أيكما المخطئ في
خلافات فقهية تعاملت معها الأمة دهرًا بيسر؟!

فانتبه للشوايت، وتعلم الفرق بين الشوايت وغيرها، وانتبه لهواك
حين يتسلل تحت جناح البغض فيفسد سلة الفاكهة!

سيقتلك إذن يا أحمق!

حين قتل رجل تسعة وتسعين نفساً، ثم جاء يسأل عن توبة، فأصابته العابد لوثة، وضعف قلبه عن حمل هذا الكم من الشر في العالم، وأفتى بجهل، وقنط صاحبه من رحمة الله، فلم يعد لديه ما يخسره، فقتله!

ثم أتى العالم فأرشده إلى طريق التوبة فاحتمل مشقته ومات على الطريق.

١- لا تفتي بجهل، فتفسد وتقنط الناس من رحمة الله، وتؤذى في غير ذات الله! فلا أنت ربحت ولا ربح غيرك.

٢- لا تقنط الناس من رحمة الله، فإن رحمته وسعت كل شيء.

٣- لا تأمر الناس بـ«التوبة» بل أرشدهم إلى «كيفية» التوبة، والوسائل المعينة على التوبة.

٤- فمثلاً الصحبة الصالحة، والبيئة المناسبة تعين الإنسان على السير في طريق الخير، والعكس صحيح.

٥- لا تكن كهذا العابد الذي يظن أن سقف بيته هو العالم كله! وسواء كان ذلك عن تعالٍ أو عن جهل، فإن المتصدر إن كان

حاله كحال هذا العابد لا يدرك أننا بشر وأن الشر في البشر مركب سائد، وتذكر أن عزلتك لا تعني أن كل شيء على ما يرام.

٦- إن أفجر الناس قد تكون همته لبلوغ الحق وتحمل مشاقه فوق ما يبلغه خيالك!

فلا تنظر لأحد نظرة سوء، وانصح مخلصاً من قلبك راجياً نجاته.

٧- التهويل والمثالية ستقتلك إن لم يقتلك صاحبك بكلمة أو بدعوة منكسر، أو بسلاحه!

بعضنا يعجز عن تصور أن الله رحيم، ويضيق قلبه عن حب الخير للناس، واستشراف نجاتهم، في قلبه غلظة وقساوة لا تخطئها عين، فإن لم يعادك الخلق وتصيبك سهام المظلومين الذين قتلتهم كلماتك المتعالية، فإن هلاكك قد يكون بسوء ظنك في الله وضيق قلبك عن سعة رحمته، إلا أن يتغمذك الله برحمة منه وتوبة، واحذر أن تبلى بما تنكسر به نفسك كسرة قد لا تقوم بعدها لك قائمة!

٨- لا تكن سبباً في نفور الناس من الدين والتوبة والمحاولة الصادقة للتغيير والنجاح، ولا تقنط الناس من رحمة الله فمنهم من يذهب بلا رجعة ولا يعقب، بل يزيد في الغي فإنه لم يعد لديه ما يخسره!

لا تنشر لسانك كما تنشر الأفعى رأسها!

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

وقال ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال: «كلمة طيبة»^(٢)، وفي رواية: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

أحياناً نصاب برغبة عارمة في غرس خناجر الكلمات في مآقي من يشكو، والأسوأ أن تتلذذ بذلك!

بعض الكلمات تسمعها تجعلك تتساءل في حيرة: لو خر السامع ميتاً بسبب الكلمة هل فيه دية العمد أم شبه العمد؟!

حسناً لن أحدثك عن كون هذا مرض يحتاج إلى علاج، وأنه قلة عقل أو هوى نفس!

لكن تذكر أنت هنا من يمد يد العون، فلا تكن أحوج منه إلى العلاج!

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

دعونا نتحدث عن بعض الأمثلة:

- لا تكن متحفزاً لإشعار كل متألم أنه غير صابر على البلاء، تارك لحمد ربه والثناء!

فإن هناك فارقاً بين الإخبار بالحال والشكوى^(١)، قال عبد الله بن مسعود: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يُوعَكُ، فَمَسَسْتُهُ بيدي فقلت: إنك لَتُوعَكُ وَعَكًا شديداً، قال: «أَجَلْ، كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُم» قال: لك أجران؟ قال: «نَعَمْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذى؛ مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ، كما حُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا» متفق عليه، واللفظ للبخاري.

- تخيل أن تتكلم أم بعبارات عادية جداً عن كثرة حركة الأولاد، وتتوقع دعاء بالبركة والحفظ أو نصيحة طيبة قابلة للتطبيق، فتجد من يقول لها: «أحمدي الله فغيرك لا يجد ظفر طفل، كُفِّي عن الشكوى مخافة أن يجرمك الله منهم!»

هذا رد صادم عجيب!

(١) انظر كتاب الروح لابن القيم - المسألة الحادية والعشرون.

فهي لا تشكو كراهية، ولكن تحتاج لحل ومساعدة، وتعلن
عجزها عن التعامل مع كثرة حركة الطفل، أو حتى تشتت دعاء...
مجرد دعاء!

• وعندما يقص أحدهم مشكلة معينة فيجد أول رد: «احمد
ربك فهناك من لا يجد طعاماً!».

نعم هناك من لا يجد طعاماً، وهناك من ابتلاه الله بمرض عضال،
وهناك مأس كثيرة في العالم، لكن يا أخي أنت تعيش حياتك وتتألم
وتفرح ولم تتوقف حياتك لأن هناك من يتألم، فعلام التحفز والمثالية
التي لا تستطيع أنت ممارسة الحياة بها؟!

• وعندما يدخل على من ابتلي بشيء فيجده باكياً أو حزيناً
فيبادره بلهجة مستنكرة مقرعة: احمد ربك أنك لم تصب بكذا وكذا،
ويعدد أمراضاً حتى يؤذي صاحبه، أو يقول: أين الصبر، أين
الاحتساب، أين الرضا، أين وأين؟ وكأن مجرد البكاء أو الحزن
يخالف الصبر والرضا!.

فهل ظننت أن الدين جاء ليحولك إلى قطعة ثلج باردة، أو رجل
آلي بلا مشاعر؟!

• ويجد ملتاناً مترقياً نتائج تحليلات طبية، أو نتائج نجاح أو فشل عملية جراحية، فيبشره بفشلها لينال الأجر بلا نقصان! أو يقول له: «هب أنها فشلت فماذا كان؟!».

كأنك لو كنت مكانه لأوجعتك الكلمة.

والتذكرة ليست تلك الخناجر الحادة، فالموعظة الحسنة تنبع من قلب مخلص صادق مشفق منكسر يعرف قدر نفسه وفقره وعجزه وقدر مولاه وغناه وقدرته، لا يستطيل بها على الخلق ولا يقرع بها صاحبه بسوط لسانه كحدٍّ وجب، مع تحير الوقت المناسب والكلمات الملائمة، فصاحبك مجروح وجرحه يثعب دمًا، فإما أن تداوي جرحه أو تكفيه شرك.

وجه انتباهه إلى السؤال الأهم!

روى البخاري ومسلم أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟» قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت».

وفي رواية لمسلم: قال فكأن الرجل استكان. ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة. ولكني أحب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت».

لم يتوقف النبي ﷺ مع السؤال الأول ليثبت أنه من الخطأ طرحه ولم يكرر ما تقرر من قبل أنه لا يعلم الساعة إلا الله ﷻ، لكنه انتقل بالرجل برفق إلى السؤال الأهم ثم بشره بخير كبير.

وهكذا لا بد أن ينتقل المستشار برفق مع المستشار فيغير من توافه أهدافه وما ينقدح في ذهنه من فكر في المشكلة وينتقل به قدر استطاعته من الدناءة والسفاهة إلى السمو والرزانة.

• فامرأة تنشغل كل لحظة بما قالتها حماتها وأخت زوجها وتبحث عن ردود لاذعة رادعة للانتقام لنفسها، ينبغي أن ينتقل بها

إلى الهدف الأهم وهو كيف أكسب ود حماي وأخت زوجي.

• وشخص يهتم بما قال الناس، أو برأيهم فيه، يمكن أن ينقله برفق إلى الانشغال بطاعة أو بعمل نافع.

• ومن يهتم بما ليس عنده ولا يقنع، يمكن توجيهه إلى استثمار ما عنده والاستزادة من الخير بتدرج ملائم، ويتعلم حمد الله وشكره على نعمه وآلائه.

وهكذا ينتقل بصاحبه بذكاء وصبر من الأدنى إلى الأعلى، ولو درجة واحدة، أو ينتقل به من طريق جانبي إلى الطريق الرئيسي الرحب، أو ينتقل به من ضيق صدره وأفقه إلى سعة ورحابة الإسلام، ولا ننس أن الانتقال من مدخل النفق المظلم إلى مدخل النفق المضيء فيما يتعلق بالفروق السابق ذكرها يعتبر أيضًا من الانتقالات المهمة جدًا للارتقاء بالفكر والعلم والعمل.

تقويم سلوك لا تغيير ظروف!

روى البخاري عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم، يؤخذ الرَّجُلُ فيحفُرُ له في الأرضِ، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشارِ فيوضع على رأسه فيجعلُ نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمرُ، حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

- كان بإمكانه ﷺ أن يرفع يديه إلى السماء ويستنصر، وكان بإمكانه أن يهدئ روع هؤلاء الضعفاء المساكين بكلمات مواسية!
- لكنه صلوات ربي عليه وسلامه لم يفعل ذلك، بل في بعض الروايات أنه غضب وتكلم بقوة وحماسة وعزة.
- هكذا يتربى المسلم قوياً عزيزاً صابراً متحملاً للمشاق متفاعلاً بصورة إيجابية مع واقع وجود العنف والظلم والقهر.
- ومن هذا الحديث يمكننا أن ننطلق في بعض الآفاق هنا وهناك:

• لا يخالف عاقل في أن دور الوالدين يتضمن توفير ظروف ملائمة لإنشاء الإنسان السوي، لكن أن تتحول التربية إلى توفير ظروف وتغيير الظروف فقط، إن هذا لشيء عجاب!

لهذا نجد من يفكر بهذه الطريقة عاجزاً دوماً عن تقديم الحلول المنطقية إذا لم تتوفر الظروف الملائمة!

والمستشار الماهر هو من يحاول دائماً إعانة الوالدين أو الأبناء على إيجاد طرق للتأقلم الصحيح مع الظروف، محافظاً على دينه وخلقه، وكذلك في العلاقات الزوجية، فليس من الممكن المتاح دائماً توفير الظروف الملائمة، والدنيا يا سادة جبلت على كدر، لم تصف يوماً لامرأة ولا لرجل!

إن رفع مستوى التحمل، وإيجاد وسائل إبداعية لاستمرار الحياة بنفس سوية رغم الصعاب، أفضل ألف مرة من لعن الصعاب والظروف وتبرير الهوان والأمراض النفسية.

والأكثر إبداعاً، أن تتعلم كيف تستغل الظروف السيئة، كوقود لبناء بنية نفسية متماسكة بقوة، يستطيع اتخاذ القرارات وتنفيذها في الوقت المناسب مستعيناً بالله، متخيراً القرار الأقل مفسدة ولو كان صعباً.

إنه يحترق!

قال رسول الله ﷺ: «أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب أذنبت ذنبًا فاغفر لي، فقال ربه ﷻ: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب أذنبت ذنبًا آخر فاغفر لي، فقال ربه: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، فليفعل ما يشاء»^(١).

يقول النووي: «وقوله تعالى «فليفعل ما يشاء» أي مادام يفعل هكذا؛ يذنب ويتوب أغفر له، فإن التوبة تهدم ما قبلها»^(٢).

وذكر أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول: ذلك يُبقي من درّنه؟» قالوا: لا يُبقي من درّنه شيئاً، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»^(٣).

وعنه عن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا لذهب الله

(١) متفق عليه.

(٢) رياض الصالحين.

(٣) متفق عليه.

بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(١).

وأحاديث الرجاء والخشية كثير جدًا وللرجاء وفضله باب ثمين في رياض الصالحين للإمام النووي.

فتأمل حال ذلك الجيل الذي تربى على حسن فهم الدين والجمع بين الخشية والرجاء، وحاديهم المحبة، يعرفون مراتب الحرام ويعرفون أنهم بشر يخطئون، ولا يخرجون على هذه الأحاديث وأمثالها صمًا وعميانًا، بل يعلمون أنها لهم وأنهم ليسوا فوق البشر، وأنهم ليسوا من تراب غير التراب الذي خلق منه آدم أبو البشر، فضلًا عن أن يكونوا قد خلقوا مما خلق منه جبرائيل وميكائيل!

لن يمر بك يوم كيوم جبريل وميكال، ستذنب وتخطئ، فطوبى لمن سارع إلى التوبة وكاثر بالطاعات ذنوبه فغلبت حسناته سيئاته، واجتهد في تنقية قلبه والحفاظ على سلامته، ووجد يوم القيامة في صحيفته استغفارًا كثيرًا.

بعض الفوقية الزائفة قد تعانق الانحطاط في تناقض مثير للشفقة! البعض في زماننا يفكر بطريقة تختلف عن تلك الطريقة التي

(١) رواه مسلم.

تربى عليها هذا الجيل الفريد، جيل الصحابة ومن اتبعهم بإحسان من أهل العلم الكرام.

فتجدهم يعانون من حالة احتراق لدوائر عقولهم وقلوبهم.

يذنب أحدهم ذنباً، لأنه بشر، ويبدأ الذنب صغيراً، فيتمثل له الشيطان في عقله على هيئة ضمير واعظ مؤنب مؤدّب!

فيقرعه ويؤلمه، فلا يحتمل العقل هذا الاحتراق المستمر فيتخذ موقفاً دفاعياً ويبدأ في تخفيف الألم الذي لا يطاق، فإما أن يبلغ مأربه ويفقد الإنسان الإحساس ويصير لا مبالياً، ويفقد الشعور بلذة الطاعة وحرقة المعصية؛ لأن دوائره قد احترقت واضطر العقل إلى بث مادة مخدرة لوقف المهزلة.

وقد ينحدر صاحبنا إلى دركات الاكتئاب والمرض النفسي.

أو يقرر إزاحة كل هذا جانباً ويعيش الحياة كيفما اتفق مستغلاً احتراق الدوائر ليعيش بلا تأنيب.

هذه وسيلة دفاع العقل المنهك، وأما الأخرى فوسيلة فعالة أيضاً يحبها إبليس وجنده ويجهدون في دفعك لبلوغها ببث فكرة في عقلك تدور حول معنى: أنا مثالي أنا لم أفعل شيئاً خطأ!

تارة بتحليل الحرام المجمع عليه أو تحريم الحلال المجمع عليه بالشاذ من الأقوال، وهو الذي لا يسوغ الخلاف الفقهي الفرعي الذي أجمعت الأمة على سواغه!

وتارة بحصر الذنوب في عدة معاصٍ معينة يسهل عليه ضبطها والتمسك بها، وهي غالبًا مظهرية شكلية، ويعظم منها جدًّا ويجعل من نفسه إذ تركها بطل الأبطال المغوار، ويبدأ في إزاحة التأنيب إلى الآخرين... هؤلاء هم العصاة الذين تركوا ما استطعت أنا فعله، واقتحموا ما استطعت أنا تركه!

وبذلك ينتقل من العبودية والانكسار إلى حالة من الرضا السامي عن النفس؛ منشأ الاحتراق الذي أفسد بوصلة عقله، وخرب دوائر تفكيره، وجعله أسود كالكوز مُجَخَّيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا!

إن الشعور بألم الذنب مهم جدًّا، ولكن: هما مدخلان، أحدهما إلى توبة وأوبة، وافتقار وانكسار للواحد الجبار، فيجبر الكسر ويعفو عن الزلات، ويعينك على الطاعات وينير قلبك.

والآخر إلى ظلمات الجهل والكبر والعجب وقسوة القلب وأمراضه.

فأدرك صاحبك، لا تتركه يحترق!

تمة واستدراك!

هل تدرك أن البعض تحرقهم نيران القهر والظلم فتصيبهم بلوثة وهزيمة نفسية، تجعلهم مسوخاً؟

ثم هم يقتحمون كتب الحديث والفقه بهذه النفسية المنحرفة والعقل الذي تحطمت أبراجه فاصطدمت طائراته فيقررون للظالم حقوقاً ويلتمسون له كل عذر ويبررون كل فعل، ويطيحون بالمظلوم أرضاً منفثين عن دخان احتراقهم في رعب بقولهم: نحن الأسعد بالدليل!

وما دروا المساكين أن من احترقت دوائر عقله كان الأحرى به أن... يسكت!

الغضب!

روى البخاري في صحيحه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد مراراً قال: «لا تغضب».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»^(١).

وقال: «لا تسابَّ وأنت صائم، فإن سابَّك أحد فقل: إني صائم، وإن كنت قائماً فاجلس»^(٢).

وعن سليمان بن صرد قال: «استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرُّ وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمع النبي ﷺ فقال: أتدرون ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال له الرجل: أجبوننا تراني؟»^(٣).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) الترغيب والترهيب.

(٣) متفق عليه.

١ - في ضوء الأحاديث السابقة يمكن ملاحظة حالتين:

حالة النصح العام بعدم الغضب، وضبط النفس، وأنها وصية جامعة، ويمكن تكرارها وبيان مفسد الغضب، ومميزات الحلم وكيفية السيطرة على الغضب إذا ثارت ثائرتة... إلخ.

وحالة أخرى حين تثور ثائرة الغضب، فنحتاج إلى إسعاف سريع، ووسيلة واقعية تعين على ضبط النفس، وإذهاب الغيظ أو السيطرة على نيران الغضب... حالة نحتاج فيها إلى دلو من ماء!

والجمع بينهما ممكن في أحوال أيضًا.

عندما تأتي أم سريعة الغضب، تشكو من عناد أولادها، مشكلتها مركبة من سرعة اشتعال الغضب، مع أطفال يثيرون الغضب!

فهل الرد الصحيح في هذه الحالة أن نتحدث عن أهمية ضبط النفس ونصح بضبط النفس؟

ثم ماذا؟!

هذا رد مثالي أكثر من اللازم... رد مثير للغضب!

المساعدة التي يمكن تقديمها في هذه الحالة هي المستوحاة من الحديث الثاني.

قدّم «وسيلة» لضبط النفس: أسلوبًا للسيطرة على ثورة الغضب، أساليب صحيحة للتعامل مع عناد الأطفال، وسائل لمنع الوصول إلى نقطة الانفجار، طرق للتعامل مع الانفجارات وكيفية تدارك التأثيرات السلبية على نفسياتها وعلى نفسية أولادها بعد ثورات الغضب التي ستحدث ولا بد... لأنها وأبناءها... بشر!

بشر لن يكونوا دائمًا في تلك الصورة المثالية التي رسمها لك الكتاب والتي تحاول أن تفرضها على الواقع المتشابك المعقد!

والحديث النظري عن مزايا الحلم لا يزيد الأمر إلا سوءًا، فهي تدرك فعلا عيب نفسها وتطلب وسائل للتغيير، والكلام عن الحلم لن يكون إلا نوع تبكيت وتعجيز!

كذلك الحديث عن تأثير الغضب على الأطفال ونفسياتهم، أنت تزيد الضغوط والشعور بالفشل بهذا الحوار المثالي غير المدرك لواقع هذه المسكينة وأطفالها المساكين!

٢- «استب رجلان عند النبي» فلم يزد النبي ﷺ على إعطاء نصيحة لوقف الغضب، وانظر إلى حلمه عليهم وسوء خلق الرجل وركوبه الكبر.

في حين أنه حين كان في مرض موته فاختلفوا عنده قال لهم:
«قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع»^(١).

تذكر!

لكل مقام مقال، ومع كل شخص رد فعل يليق به.

٣- إن علاج الغضب قد يكون ببساطة هو تعليم الشخصيات
سريعة الغضب كيفية التصرف في وقت الغضب، مع التدريب على
ذلك وتكراره، حتى يصير التطبع به أقرب للطبع، وحفظ ردود
الأفعال وتكرارها باجتهاد.

كما في الحديث الخاص بتقنية ضبط الأعصاب عند الغضب
بتغيير وضع القيام إلى الجلوس أو الاضطجاع أو الإلصاق بالأرض
كما في بعض الروايات، أو بالوضوء.

٤- مهما كنت معتنيًا بضبط كلماتك والتعامل كما ينبغي وبذل
النصيحة الخالصة، فهناك من لن يقبل، وهناك من يتكبر، وهناك من
يرد عليك نصحك بغلظة... فسر وامن في طريقك محتسبًا راجيًا،
ولا تلتفت.

(١) رواه البخاري.

والمشاعر بصفة عامة تحتاج إلى وقت لتغييرها ما لم يكن الشخص معتاداً على ضبط نفسه، وقليل ما هم! فلا تبتئس إن لم تجد استجابة، ولا تحزن إن زاد الغضب بمحاولتك الصحيحة للتهدة.

٥- الناس يختلفون في درجة إيمانهم، فهناك مؤمن ضعيف الإيمان ومؤمن قوي الإيمان، وبينهما درجات وتنوع لا يمكن حصرها، وهناك منافق، وهناك مرءٍ، وهكذا.

فالمؤمن القوي وقَّاف عند آية أو حديث أو تذكرة.

حسنًا!

هذا «القوي» ليس أنا ولا أنت يا ابن أخي! فضلاً عن أن تطالب به الناس وتتعجب من عدم وجوده إلا في ندرة من الخلق!

وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه فقال: «فما تعدُّون الصَّرعَ فيكم؟» قال ابن مسعود قلنا: الَّذي لا يصرُّه الرِّجالُ، قال: «ليس بذلك ولكنه الَّذي يملك نفسه عند الغضب» متفق عليه، وهذه رواية مسلم.

وتأمل هذه الأحاديث:

• روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: لما كان يومُ

حينئذٍ، أثار النبي ﷺ أناساً في القِسْمَةِ، فأعطى الأقرع بن حابس مائةً من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، فأثرهم يومئذٍ في القِسْمَةِ، قال رجلٌ: والله إن هذه القِسْمَةَ ما عدلَ فيها، وما أريدَ بها وجهُ الله. فقلتُ: والله لأخبرنَّ النبي ﷺ، فأتيتُهُ فأخبرتهُ، فقال: «فمن يعدلُ إذا لم يعدلِ اللهُ ورسولُهُ، رحم اللهُ موسى، قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ».

• وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، فنزل على بن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته؛ كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن لعيينة، فلما دخل قال: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ بأن يقع به، فقال الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقفاً عند كتاب الله.

فهذا رسول الله، وصاحبه الذي تربى في مدرسة النبوة واستنار قلبه بنورها، تُرى كم استغرق عمر حتى بلغ هذا الشأن؟ أن تتلى عليه الآية فلا يجاوزها!

وهل بلغت أنت هذا الشأن وأنت المتصدر صاحب المهمة الناصح لإخوانه؟

فخذ الناس بحلم ورفق؛ درجة بعد درجة، فترتقي قبلهم وهم معك على الدرب وربما سبقك بعضهم! ولا تُحملهم ما لا يطيقون دفعة واحدة، بل أقول لا تحملهم ما لا تطيق أنت فتهلك نفسك وتهلكهم.

وتذكر في هذا المقام، أن عمر الوقاف عند آيات الله، هو نفسه عمر الذي كان يؤدب بالدرة! فيتسع أفقك وتعلم أن هذا لا يخالف ذاك.

والسعيد من أقبل على شأنه فهدبها وتفقد قلبه فنقاه، ولم يقل بعينه هكذا وهكذا، منشغلاً بالناس عن نفسه.

خاطرة: الكلمة مسئولية^(١)

كلمات أيقظت في نفسي ذكرى لم تعد تثير في نفسي إلا الغرابة
والضحك رغم أنها تعد حادثة مفزعة!

كان ذلك حين أنهيت تعاملي مع مقلاقي الصغيرة وأخذت الطعام
اللذيذ وخرجت لأكله مع صغاري قريباً من المطبخ!

ومن رحمة الله أن حانت مني التفاتة إلى الحائط المواجه للمطبخ
فرأيت تراقص الضوء البرتقالي اللون... لم أستوعب لوهلة كنهه،
فاقتربت لألقي نظرة فوجدت أن مقلاقي الصغيرة لا تزال على النار
الموقدة، وقد اشتعل الزيت فيها بنار حقيقية!

نار لم تُهذَّب كتلك التي تخرج من عيون الموقد!

نار برتقالية حقيقية مترقصة في وقاحة!

نار من النوع الذي ما أن يراه الكائن الحي يتوقف عقله ويفزع
ويطلق قدميه كالأرنب راكضاً!

هذا خوف الكائنات من نار الدنيا التي جعلت تذكرة - وهي لا

(١) خاطرة كتبتها ونشرتها من قبل بعنوان: الماء والهواء والزيت المشتعل!

شيء - تذكر بنار الآخرة... لكن نار الآخرة لا تثير في القلوب جزءاً
إلا قلوب المؤمنين حقاً!

وفي سرعة استجابة، وذكاء فائق، أحسد عليهما! أخذت كوباً
صغيراً من الماء فسكبته فوق مقلاتي وتراجعت في ذعر من الانفجار
الناتج عن رش الماء على الزيت المشتعل... وازداد الاشتعال!
أرفع عيني في رعب إلى مواسير الغاز أعلى الموقد وآنية الزهور
البلاستيكية: يا رب سترك!

ولأن عقلي متوقف في ركن صغير من أركان التفكير ومصرّ أن النار
والماء لا بد ألا يجتمعان فلم أجد فكرة أكثر عبقرية سوى أن أحمل دلوّاً
كبيراً كاملاً فأسكبه بالكامل على مقلاتي لتنطفئ النار أخيراً!

وقفت أتأمل فداحة فعلي، فقد صار المطبخ والموقد غارقين في
مزيج من الماء اللزج بسبب الزيت! وبدأ لي أن عليّ التشمير لعمل
شاق... أهم شيء أن النار انطفأت حتى لو كانت تاركة أثراً قبيحاً
أسود اللون على الحائط والسقف! وأثراً مرعباً في قلبي وعقلي!

وبعد المشقة حين قصص القصص على والديّ أخبرني أبي أن كل ما
كان عليّ فعله ببساطة هو أن: أطفئ الموقد وأغطي المقلاة بغطاء محكم...

وبهذا أمتنع تغذية النار بالأكسجين فتكف عن الاشتعال!

أتعجب أن الماء الذي منه كل شيء حي والذي لا يستطيع مخلوق أن يحيا إلا بتناوله... قد زاد الزيت اشتعالاً!

والهواء الذي لا يمكن أن نعيش إلا بتنفسه يزيد النار اشتعالاً!

الماء والهواء مادتا الحياة... كانا كذلك سبباً في حياة النار فتقضي على الحياة!

كذا الحياة...

إن الكلمة التي قد يحيا بها إنسان قد تكون سبباً في موت آخر إذا كان ذاك كالزيت المشتعل!

قد لا نستطيع تقدير نفس من نحادثه وتقييم ما في صدره أهو زيت يغلي أم كائن عطش يشهق... بحاجة إلى الهواء كي يستنشقه.

فنفس الكلمة التي تقتل هذا تحيي ذاك!

فإن كنت لم تحكم ميزان كلماتك ووقعها أو تقدير حساسية المستقبل لكلماتك... ففي الصمت ما يغنيك... فإن قطع مادة الحياة عن الغضب أولى من كلمة قد تغذيه.

كذلك إذا رأيت تراقص اللهب واشتعال الموقف... فعندها غطّ
الحريق وامنع عنه الهواء حتى تنطفئ النيران
يقول ابن القيم: «إذا خرجت من عدوك لفظة سفه فلا تلحقها
بمثلها تلحقها، ونسل الخصام نسل مذموم»^(١).

(١) الفوائد.

واقعية لا مذهرية فارغة

نصح النبي ﷺ الشباب فقال: «من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١).

تأمل النصيحة لم يكن فيها «فليترهبين» ولا «فليؤنب نفسه حتى الموت»!

إن الإسلام نزل من عند الخالق الذي أبدع هذا الإنسان، ليكون ختام الرسالات ويصلح الله به حال الفرد والمجتمع.

ولهذا فإن الأحكام والحلول في الإسلام ليست نظريات مثالية بعيدة عن الواقع أو معاكسة للفطرة، بل هي حلول واقعية مرنة متناغمة مع طبيعة الإنسان.

لن نتناول الكلام عن الشهوة وما يتعلق بها هنا فلهذا باب منفصل، لكن الغرض هنا أن نتأمل هذا الحديث ونفتح أبواب العقل على آفاق رحبة، لعلنا نمزق شرقة الهزيمة النفسية، ونحلق في سماء العزة الإسلامية.

(١) متفق عليه.

• في الحديث تقديم حل عملي لتصريف الشهوة في مكانها الصحيح، فمن لم يستطع، قدم له بدائل مشروعة تعين على كبح جماح النفس حتى يفتح الله أبواب الرزق.

ليس في الحديث تأنيب ولا تبيكيت، ولا تعجب من الفطرة الطبيعية المركبة في الإنسان، ولا أمر بشيء فوق الاستطاعة ولا موعظة في غير محلها.

وعلى هذا المنوال دعونا نطوف حول بعض المعاني التي يخلط الناس فيها بين القدر المتعلق بالحلال والحرام، والقدر المتعلق بفطرة مركبة عادية.

وهذا الخلط ينشأ من عدم إدراك الفروق بين الحلال والحرام وفقه ذلك، فكل الشجر كان لآدم حلال، إلا شجرة واحدة!

كل شهور السنة طعام وشراب، إلا شهراً واحداً فصمه!

كل اليوم سعي وكد وجد ولهو، إلا خمسة أوقات يسيرة للصلاة!

كل مالك حلال لك إلا مقدار الزكاة!

وما زاد من جنس ذلك فهو تطوع، كل ينهل منه بحسب قدرته فيرتقي بحسب درجته.

وليس في جنس الأوامر والنواهي شيء يصادم الفطرة أو يعجز عنه الإنسان.

• فامرأة التي تأتي لتشكو من إقدام زوجها على الزواج الثاني، يحدوها حادي الغيرة.

• فنجد نصيحة الناصح مستنكرة: لا تغاري... وكيف تغاري وهذا أمر الله؟!

وربما بلغ به حد العبقرية إلى اتهامها أنها رافضة لأمر الله أو بالكفر! أو نجد نصيحة بالصبر، وتعمى بصيرة الناصح عن رؤية شذرات نيران الفتنة في الدين مقبلة في جنون.

فلا هو فهم مشاعرهما، ولا أعطاها حلاً عملياً لتطفئ نار غيرتها، ولا علمها كيف تصبر بلا فتنة ومفسدة في دينها، ولا حتى وافق أحكام العلماء والفقهاء فيما بذل من نصيحة صماء! فهذا رد مثالي بارد وغير منطقي.

فإن زوجات النبي ﷺ كن يغرن، ولم يكن النبي ﷺ يزجر واحدة

منهن، بل يحلم ويصبر ويتسم تارة ويعرض تارة، فإذا وقع منكراً أنكره بقدره ولم يزد، كما ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حَسْبُكَ من صفة كذا وكذا، قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»^(١).

• وكذلك كن رحيماً، وقدم حلولاً عملية واقعية لمن جاءك يشكو شعوراً فطرياً لا يمكنه دفعه، أو يمكن دفعه بكثير من المشقة والجهد؛ كعشق، أو ألم، أو خوف، أو رغبة واستشراق لشيء من الشهوات والأهواء، فتكون نصيحتك عوناً له على الإقدام على الصواب وعوناً له على ترك الخطأ.

أما أن يكون ردُّك البارد المستنكر وقود سوء يدفع صاحبه لمزيد من الحماقات، فالصمت أولى، وأخشى أن يكون ذلك مظهرًا من مظاهر التعالي، والغفلة عن أن الله نجاك من فتنة لا بقوتك وقدرتك، بل بمحض رحمته وفضله، ولو شاء لرفع عنك يد التوفيق فلغرقت إذن في بحر الخذلان!

البغي والكلب!

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بَرَكِيَّةَ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَزَعَتْ مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ فُغْفِرَ لَهَا بِهِ» (١).

• إنني أتساءل: من الذي زعم أن الذنوب سبب جازم يمنع المغفرة هكذا بإطلاق؟

لا شك أن للذنوب أثراً سيئاً في حياة الإنسان، لكن الإنسان خلق ليذنب ويستغفر ويتوب، ثم هو يتعثر فيذنب وهكذا!

يقول ابن تيمية: «وقد يقال بل الاستغفار بدون توبة ممكن واقع، وبسط هذا له موضع آخر، فإن الاستغفار إذا كان مع التوبة مما يحكم به عام في كل تائب، وإن لم يكن مع التوبة فيكون في حق بعض المستغفرين، الذين قد يحصل لهم عند الاستغفار من الخشية والإنابة ما يمحو الذنوب، كما في حديث البطاقة بأن قول: لا إله إلا الله، ثقلت بتلك السيئات لما قالها كنوع من الصدق والإخلاص الذي

(١) متفق عليه.

يمحو السيئات، وكما غفر للبغي بسقي الكلاب لما حصل في قلبها إذ ذاك من الإيمان وأمثال ذلك كثير»^(١).

وذكر بعدها، كما ذكر الطحاوي وغيرهما أسباب زوال الذنوب عن العبد غير التوبة!

• ومن المؤسف أننا نزعم أننا أهل سنة وجماعة، وأن مرتكب الكبيرة تحت مشيئة الرحمن يوم القيامة، وأنه رَبِّكَ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، ثم عند التطبيق نجزم له بنار جهنم عملياً، ونقنط الناس من رحمة الله فنصرفهم عن التوبة، ونعسرهما عليهم، ثم إن لم يستجيبوا لنا تمنينا لهم العذاب والوبال في الدنيا والآخرة!

فأين نحن من هذه المعاني المبثوثة في الكتاب والسنة وكتب أهل العلم؟

فلعل كل من تصدر لعلاج إخوانه يسمو من ضيعة أفكاره وأسقام مجتمعاتنا، إلى رحاب فقه الأئمة والعلماء، ويكف عن تلقف الكلمات من هنا وهناك وتكرارها، فإن هذا لا يليق بك.

(١) الإيمان الأوسط، ابن تيمية.

أتحبه لأمك؟

لما جاء الشاب يستأذن النبي في الزنا، لم يُسمعه النبي مواعظ في حرمة الزنا، فإن ذلك معلوم لدى الفتى!

لكن حاكمه إلى فطرته، فأنازل له سراجاً يستضيء به في ظلمات الشهوة، وأغدق عليه دلوًا من الماء يطفئ حرها، فانتبه... وأفاق!

تأملتُ في قصة الفتى الذي طلب من النبي ﷺ الإذن في الزنا، وكلما تأملتُ تعجبتُ!

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة قال: «أتى فتى شابًا النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا.

فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريبًا قال: فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟».

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم».

قال: «أفتحبه لابنتك؟».

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم».

قال: «أفتحبه لأختك؟».

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم».

قال: «أفتحبه لعمتك؟».

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم».

قال: «أفتحبه لخالتك؟».

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم».

قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن

فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء».

١ - الحوار الأنيق!

حوار هادئ، سؤال وجواب، جامع بين العقل والعاطفة، تكرار

نفس المعنى بعدة أساليب، ملائم للمتحدث، وهلم جرًا صف ما

ترى مستمعًا!

وكذا المربي، والمستشار، ينبغي أن يكون حوارهم أنيقًا.

٢- حوار ذكي!

يوجه بلطف ويحدو في طريق لا ينبغي أن يكون متشعباً، يحصل على إجابة واحدة للسؤال جزماً بها قبل سماعها!
وهذا من مراعاة مقتضى الحال، فقد تسأل شخصاً تربى على الحريات بلا قيود قائلاً أتجبه لأملك؟ فتكون الإجابة: ولم لا؟!
فلكل مقام مقال.

٣- خذ الأمور ببساطة!

هذا رسول الله ﷺ؛ أظهر الناس قلباً، وأبعدهم عن فحشٍ وفاحشة، وأحفظ الناس لجوارحه، وأتقاهم لله، قلبٌ طهره الله وسلمه ونقاه من حظّ الشيطان، ولا وجه مقارنة بين النبي وسموه ومنزلة إيمانه وبين أحد من أمته، وهو مع هذه الرقة والطهارة الحقيقية يأتيه الشاب فيطلب منه أن يرخص له في فعل فاحشة، ينفر منها الأحرار لا سيما العرب، فيكون رد فعله صلوات ربي وسلامه عليه: هادئاً، متفهماً طبيعة الشباب، بل ينهي أصحابه عن تناوله وزجره.

٤- يبدأ الحوار بإدناء الفتى منه في لفظة مشعرة بالأمان والحماية والمودة والرحمة، ويختتم الحوار بدعاء، وملاطفة، وهذا مما يؤلف القلوب ويُسكن النفوس.

٥- التعامل مع الشهوة لا كطريقة النصارى، فإن مسار الحوار لم يأخذ لحظة منحني ذم الشهوة والرغبة أو الأمر بالترفع عن هذه الدنيا أو نحو ذلك، لكن مسار الحوار متعلق بتحريم جزء معين تأنفه الفطرة السليمة ويحرمه الشرع.

٦- لا تطمس فطرة الناس ثم تتشكى!

وعامة جدالات الناس تطمس الفطرة، كيف؟

عندما يطرح أحدهم سؤالاً أو يشتهي شيئاً يخالف الفطرة، فتبدأ في محاولات الإقناع بطريقة تتضمن التسليم للسؤال نفسه.

كما هنا في الحديث: الشاب يقول: أريد الزنا، رخص لي في الزنا، فيبدأ مَنْ يحاوره يقول: لكن الزنا محرم، وهو شيء قبيح، فيرد الفتى: ليس قبيحاً، أنا أراه شيئاً جيداً. ويتخذ الحوار منحني إثبات قبح أو جودة الفعل!

أو تأتي امرأة تسأل: لماذا لا يكون للنساء عدة أزواج كالرجال يباح لهم عدة زوجات، أو تسأل عن الجنة: لماذا لا يكون للنساء فيها عدة أزواج؟

ومثل ذلك، لماذا فضل الله جنس الرجال على جنس النساء؟

ولماذا تخضع المرأة لزوجها؟

هذه الأسئلة وأشباهاها متناقضة مع الفطرة فالأصل فيها الرد للفطرة مباشرة، فتكون الإجابة مذيبة للصدأ الذي ران على النفس.

فإن المرأة طبيعتها لا تحتمل الزواج من عدة رجال ولا تشتهي ذلك إلا من انحرفت فطرتها، وجنس الرجال مفضل على جنس النساء لأن الواقع المشاهد أن نفس الرجل وبدنه وعقله يحتمل غالباً ما لا تحتمله النساء، وكل ميسر لما خلق له، وتخضع المرأة لزوجها لأن فطرتها تحب ذلك، ولا توجد امرأة طبيعية لا في المشرق ولا المغرب تتمنى الزواج من رجل أقل منها قدرًا أو عقلاً أو فيه أنوثة، بل تتخير رجلاً تركزن إليه وتشعر معه بالأمان، وتستمتع بالخضوع له في إطار من العدل والرحمة لا القهر والاستعباد، والمشاهد ولو في بلاد الغرب أن من عشقت ولو بلا زواج رجلاً سارعت إلى إرضائه وتحري محابه.

فالمواعظ هنا لا أثر لها كما تؤثر إصابة الفطرة وخلخلة الصدأ المتراكم عليها، هذا يحتاج إلى عناية ومحاولة جادة لاستصلاح أساليب في الحوار والرد تأخذ صاحبك في المسار الصحيح حتى تصيب الهدف بدقة.

٧- تكرار السؤال وتكرار الإجابة!

إن الحق حينما يكون ثابتاً بأدلة مستفيضة، فتطمئن النفس له،
وتستكين الروح في رحابه، تعجز الشبهة عن اختراق القلعة!

التكرار بطرق مختلفة لأداء نفس المعنى، واستغلال كل الوسائل
المتاحة وبناء الأسواء حول الحصن، يجعل الإنسان في معزل عن
الشبهة.

ليست كل الشبهات يقبلها العقل، وكذلك ليست كل الردود
مشبعة أو كافية لقتل الشبهة.

لكن حينما يكون جسدك محصناً وقوياً ومتمتعاً بجهاز مناعي
قوي، فإن الفيروسات ترد وتذهب، منها ما تشعر به ويؤثر تأثيراً
محدوداً ينتهي بعد يومين أو ثلاثة، ومنها ما يموت قبل أن يبدأ
جسدك في التفاعل.

وإنما كان ذلك لأن الجهاز المناعي لديه العديد من وسائل
التحصين المجملية والمفصلة التي تراكمت فيه على مر السنوات.

فكرر ولا تمل حتى يصير ما تكرر كأنه نابع من قلبهم وعقلهم.

وقفات مع حديث الفضل ابن عباس^(١):

تأملت كثيراً في قصة الفضل بن عباس ثم، حين أردفه رسول الله ﷺ خلفه على راحلته يوم النحر، وكان الفضل رجلاً وضيقاً، فوقف النبي ﷺ للناس يُفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيفة تستفتي رسول الله ﷺ، فطفق الفضل ينظر إليها، وأعجبه حسنهما، فالتفت النبي ﷺ والفضل ينظر إليها، فأخذ بذقن الفضل، فعدل وجهه عن النظر إليها، فقالت المرأة: يا رسول الله إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يُقضى عنه أن أحج عنه؟ قال: «نعم».

هذا الحديث يحتج به من يرى جواز كشف وجه المرأة، ويجب الموجبون ستر الوجه بأجوبة، كما هو معلوم في محله.

ويحتج به الفقهاء على قضاء العبادات، وغيرها من الفوائد الفقهية.

ولكن ليس لهذا سَقْتُ الحديث...

وإنما سقته لأمر آخر لفت نظري:

(١) منشور على الانترنت، للشيخ محمد عبد الواحد.

هذا الفضل بن عباس رضي الله عنه، صحابي جليل، وهو في يوم النحر، أعظم الأيام عند الله تعالى، وفي مناسك الحج، وهو أيضًا محرم بالحج...

فهنا -رعاك الله- اجتمع شرف الزمان والمكان والشخص.

أضف إلى ذلك: أنه يركب خلف النبي ﷺ! ثم هو ينظر إلى المرأة، ويصرف النبي ﷺ وجهه عنها!!

سألت نفسي: لو كنتُ سائرا يومًا مع أحد مشايخي، أو أحد تلامذتي حتى، أو أي شخص عادي، ومررت بي امرأة، وأنا أعلم أن من يسير معي يلاحظني، هل كنت سأنظر إلى تلك المرأة مهما كان جمالها؟!

ربما سأسترق النظر، بحيث لا يراني من يسير معي.

وربما سأنظر نظرة أجد منها مخرجًا لو لاحظني، كأن أنظر لها بازدراء لأنها كاشفة، وباطني الإعجاب! أو أنظر في زاوية تحتمل أنني لا أراها، أو لست مُركِّزًا معها.

وربما لو عجزت عن هذا كله، فلن أنظر أصلاً، صيانة لنفسي!

لكن الفضل رضي الله عنه وهو محرم بالحج، وهو رديف رسول الله ﷺ نظر إلى المرأة!

تخيل الموقف: رسول الله ﷺ معك، وتنظر إلى امرأة!

لا شك أن الفضل يعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم
التعظيم اللائق به، لكن كيف حصل هذا؟

هذا محل الملحوظة:

الرسول ﷺ يعامل أصحابه على أنهم بشر، ليسوا ملائكة،
يعاملهم على مقتضى الضعف البشري وفطرة الإنسان.

التقي قد يعصي الله، نعم، وقد يقع في فاحشة أيضاً، لكنه كما قال
الله في وصف الأتقياء: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أنت صحابي، عالم، شريف النسب، ربتك جليلة، ومتلبس بعبادة،
ومع ذلك قد تعصي الله، وسيراك رسول الله ﷺ، ولن يسكت عن
المنكر، بل سيغيره، لأنه صرف وجهه بالفعل.

لكنه تغيير، وليس بتغيير!

لن تنقص هذه المعصية منك ما دمت تجاهد نفسك.

لن يعيرك بها الصالحون ولن يزدروك؛ لأن المجتمع تربي تربية
صحيحة، وليسوا مرضى!

سيرون الحديث ويذكرونك بالاسم، مع أن المقصود يحصل
بذكر القصة دون تسمية، وهم لا يرون ذلك منقصة، ولن يعدوك
(غير ملتزم)، ولن يخرجوك من دائرة (النقاوة والطهرانية)!

رسول الله ﷺ نفسه هنا: لم يعنف الفضل، ولا نهره، ولا غضب
منه، ولا وبخه.

صرف وجهه، فحسب، غير المنكر بما يليق به، وانتهى الأمر...
أقبل على المرأة يفتيها!

شاب متدين غلبته نفسه فارتكب ذنباً... لا بأس، هو ما زال
متديناً صالحاً.

لن يسقط من نظر المتدينين.

رجل آخر مدمن خمر -والخمر أم الخبائث- يؤتى به فيجلد،
فيطهره الحد، ثم يعود مراراً، ويجلد في كل مرة، ثم يشهد له النبي ﷺ
شهادة تدخله الجنة: «إنه يحب الله ورسوله»، وينهى الصحابة عن سبه!

وآخر غلبته نفسه، فقبل امرأة، وضمها، وفعل معها ما دون

الجماع، ثم جاء يحكي ما فعل لأبي بكر وعمر ثم، ثم للنبي ﷺ، فيقال له: «هل صليت معنا؟ إن الحسنات يذهبن السيئات».

وآخر يزني، ثم يأتي ويعترف، ويطلب أن يقام عليه الحد، وهو هنا: الرجم حتى الموت! ويجود بنفسه لله.

وتتبع هذه الشواهد يطول.

هذا المجتمع مجتمع صالح، مجتمع جاذب وليس طارداً، مبشر وليس منفراً، رحيم وليس قاسياً، بشري وليس ملائكياً طهرانياً، واقعي وليس ذا دعاوى نقاء فارغة.

هنا: يستقيم المرء، ويكثر خيره، ويصلح قلبه وعمله.

هنا: لن تجد - في المؤمنين حقاً - نفاقاً، ولا رياء.

هنا: لن يدعي المرء كمالاً هو منه خالٍ، حتى إذا ما خلا بمحارم الله انتهكها وراح يعربد ويفجر، ثم يصبح يعير الناس بذنوبهم ويتعايش مع نفاقه أو فجوره المكتوم، في تطبيع مع كبائر نفسه، وتشنيع على صغائر غيره.

هنا: ستحسن فهم ما تراه في كتب التراجم، من نقص يُذكر في أحوال بعض الكبار.

أتذكر -وأنا أكتب- كثيرًا من الفواحش التي تحكى لي عن أناس ظاهرهم الصلاح، وموبقات يرتكبونها يندى لها الجبين، وهم ينظرون في ذنوب الناس كأنهم أرباب، ويدعون نقاوة ليسوا متحققين بها، وصلاًحاً ليسوا أهلاً له.

أتذكر شخصاً ملتحمياً -كان يلبس دائماً عباءة يحملها معه في حقيبته، فيلبسها فوق سرواله، حين يريد الصلاة؛ لئلا يصلي بالسروال، مع أنه ليس ضيقاً- أتذكره وقد هجم مرة حين ركبت معه سيارته فرأيت في طفايتها أعقاب سجاير، فلما أدرك، قال لي: إنها للسايس حين كان ينظف السيارة!

وأنا أدري أنها له وليست للسايس الذي لا يستخفي بسيجارته.

أسأل نفسي: ما الذي اضطره إلى الكذب؟!

وما الذي جعله يستخفي بهذا؟

إنه الخوف من تصنيف الناس وازدراؤهم له وطردهم إياه من دائرة النقاوة، بينما هو يتمثلها تامة في لباسه وهيأته!

لهذا يستخفي أحدهم بالذنوب حتى يعتاده ويألفه ويحبه، ويجر الذنب ذنباً آخر، ثم ينتكس حقيقة لا ادعاء، حتى لو ظل ظاهره (نقياً ملتزماً)، وربما يخرج إلى النفاق.

وهنا: سيفرغ طاقة الإنكار المكبوتة وسيمارس دعاوى النقاوة في غيره، وسينسى نفسه.

وسيعامله المجتمع بنفس المعاملة، فيعدون الصغيرة منه كبيرة، بعض المباح حرامًا، وسيكون فتنة لمن شاء الله فتنته.

أو لا يطيق آخر التمثيل طويلاً، فينتكس من أول الأمر ظاهراً وباطناً، ويترك هذا الطريق الذي لا يرحمه فيه سالكوه لو خرج عن جادتهم، ولو بمسألة خلافية!

وما نظرهم لمن أخذ من لحيته، أو أسبل ثوبه، أو كشفت وجهها، أو لبست ألواناً بأمر غريب أو مجهول لمن عايش هؤلاء.

فإذا كان كذلك فما الذي يضطرني إلى هذا (الالتزام) الغالي أربابه؟!

دعنا نعيش أسوياء، نعترف بذنوبنا، ونتعامل على أننا عصاة مكشوفون، فيرحم بعضنا بعضاً، ونؤمل في رحمة الله الواسعة.

ولن تستغرب من كمية الأسئلة والانهيار الحاصل من جراء ذنوب الخلوات، التي يقصرها أصحابها غالباً على صور خاصة من الذنوب، عامتها متعلق بالشهوات، وبدلاً من أن تكاثر بالحسنات،

ويُعامل معها برشد تتحول إلى أسباب للانفلات التام والفجور
الصريح المعلن!

أما الفضل: فنظر في هذا المقام المهيب لامرأة، ولم يلق تهويلاً ولا
ازدراء.

وأما شارب الخمر؛ فطهره الحد، وحاز شهادة من رسول الله
يتمناها أعبد الناس وأتقاهم، ولو بذل فيها نفسه وأهله وماله!
وأما من فعل بالمرأة ما فعل، فصلى الصلاة في الجماعة، وحُطت
عنه ذنوبه.

وأما، وأما، وأما.

فاتقوا الله في أنفسكم وفي إخوانكم، وزِنُوا الأمور بميزانها،
وارجعوا إلى الأمر الأول، دون غلو ولا شطط ولا تشديد خارج عن
الشرع والفطرة والعقل.

تلقوا دينكم من مصادره الأصلية، وبفهم الفقهاء حقاً، لا
القصاص والوعاظ الذين لا فقه لديهم ولا وعي. والله المستعان.



فصل

ومضات أسرية

«هذه النفسية السوية لم تتخرج من قصور كسرى وفخامة هرقل!

لم تتخرج من جامعة كذا ولا من مدارس كذا!

لم تتوفر لها البيئة التي يزعمونها شرطاً في كتبهم لكي يصبح
الطفل سوي الشخصية!

ولكن تخرجت من خيمة في الصحراء!

كم من فقير أو يتيم أو غريب عاش يخدش الصخر بصبر حتى
صار ذا شأن!

وكم ممن توفرت له السبل التي يزعمونها صار في أهل الإجرام...
ذا شأن!«^(١).

١- تعلم!

٢- لمن توجه خطابك؟

٣- مروءة!

٤- التربية منظومة كاملة.

(١) مقتبس من مقال لي قديم.

٥- الأم المثالية ليست تلك المطابقة لكتبهم!

٦- خواطر أمنا الغولة!

٧- اعتن بعلاج ظاهرة ضيق الأفق.

٨- لماذا تفشل الطرق التربوية؟

٩- اعتن بتصحيح المفاهيم.

١٠- تبادل وتوافق.

تعلم!

نحن بحاجة إلى التعلم، بل والتفاعل مع العلم، ونقد النظريات التربوية والأسرية الحديثة، وتعلم ديننا بحق.

جميعنا بحاجة حقيقية للتعلم، فالزوج والزوجة غالبًا لا يعرفون حقوقهم وواجباتهم، ولا يفقهون الهدف من الزواج، وليس لدينا في العالم العربي دورات لتأهيل الإناث والذكور لفهم هذه الأمور وتحمل مسؤولياتها والتعامل الصحيح مع رفيقه في الحياة، إلا على نطاق ضيق وجهود فردية غالبًا، ويتلوث الكثير منها بالجهل والبعد عن الفهم الصحيح للدين، وتنخر الشبهات في المجتمع بلا وقاية حقيقية.

فلا أقل من يهتم ممن يتصدر لقضاء حوائج الناس بتعلم ما يتعلق بما يتصدر له، ويتحلى بالمرونة والحلم، والصبر على العلم، والتنوع والانفتاح لفهم ما يقابله، والسعي الحقيقي لحل وتفكيك المسائل التي تقابله وفهمها بعمق.

نحتاج إلى تعلم فقه الأسرة، وأحكامه، وترسيخه فينا أولاً، ويتضمن ما يتعلق بين الزوجين، وما يتعلق بالتربية، لدينا تراث ثري من أساليب التربية والآداب لا نكاد نعرف عنها شيئاً بل أقول بأسى،

لا يكاد القارئ يفهم لغة كتابتها فضلاً عن فهم رقي معانيها، وما ذاك إلا لبعدنا عن لغتنا وضعف اعتزازنا بهويتنا المسلمة، لدينا سير العلماء والأدباء والصحابة والأنبياء، وفيها من العبر والأساليب العبقريّة كنوز مدفونة تنتظر من يستخرجها.

نحتاج إلى فهم الفروق بين الرجل والأنثى، وبناء الفرد والمجتمع بطريقة تراكمية صحيحة ومتناسكة.

إننا في زمان لا يزيد المثقف فيه عن مطالعة كتب الغرب عن التربية، واعتناق نظرياتهم بغيها وسمينها، واستيراد مشاكلهم مع حلولها، في منظومة حمقاء بعيدة كل البعد عن واقع مجتمعاتنا ومشاكلها الحقيقية واستغلال ثرواتها ومميزاتها وتقويم عيوبها بما يلائمها!

تعلم!

تعلم ولا تعتمد على ذكائك وسرعة بديهتك، ولا تكتف بأفكارك التي قد يكون من بثها في نفسك هو إبليس بنفسه! لا تكتف بما ينتشر في المجتمع، وما استحسّنه والداك وصديقك! لا تكتف بما تستحسّنه أنت ويعجبك، فالعلم في واد خصب يجري فيه أنهار

عذبة، والهوى في الطرف الآخر من وادٍ صخري كقيعان، لا ماء
أمسكت ولا زرعاً أنبتت.

تعلم ولا تمل، ولا تفتر إلا ما لا بد لك منه لأنك بشر.

لمن توجه خطابك؟

إن البليغ حقاً هو من يراعي مقتضى حال المخاطب، والفقيه صدقاً هو من يدرك المفسد والمصالح، فتكون المصلحة في فعله طاغية على المفسدة المصاحبة حتى يكاد ضوء الأولى ودفؤها، يُبدد ظلمة الثانية وبرودتها!

إن الخطاب الموجه للأمم لا بد أن يكون مختلفاً عن ذلك الخطاب الموجه للولد، والخطاب الموجه للزوج يختلف بطبيعة الحال عن الخطاب الموجه للزوجة.

والخطاب العام، له طبيعة مختلفة عن الحوارات الخاصة، والمشاكل الكبرى العامة، يختلف تناولها وخطوطها العريضة والغالبة عن تناول مشكلة خاصة.

والمكابر في ذلك يريد أن يحجب الشمس عن العالم بيديه إذا وضعهما على عينيه!

إذا كنت تكتب مقالاً عاماً، أو تتقي المنبر لتهتف في الناس بخطبة،

فيقرأ ويسمع والد وولد، وزوج وزوجة، فكن حذرًا، وعليك بالقرآن، آدمّن قراءته وقراءة تفسيره؛ لعل الله يقذف في قلبك الحكمة، وتتعلم شيئًا من أساليب الخطاب العامة، وتناغمها مع النفس البشرية.

من أكثر ما يحزنني أن أجد مقالًا عامًا منتشرًا في وسائل التواصل الاجتماعي، يتناقله شباب دون العشرين، يتكلم عن الأهل بطريقة سلبية مثيرة للعقوق والعنت، والأدهى أن يكون ذلك في صياغة تبدو للجاهل أنها علمية وتربوية!

فلو كان هدفك مساعدة الأسرة فلا ينبغي أن تساهم في شحن الولد ضد والديه، ولا أن توبخ الأم والأب في مقالات عامة فتصل بالأسرة إلى حالة من العجز وزيادة التوتر والضغط العصبي... والتوبيخ شهوة!

يفترض أن المقالات العامة تهدف إلى تحسين العلاقات الأسرية بصورة عامة، وتعطي حلولًا عملية ومنطقية للطرف المتعرض للظلم، مع نوع توعية بالحقوق والواجبات في إطار مراعاة الثوابت الشرعية والأحكام، لا أن تساهم في خلق حالة من الغضب أو النفور، أو أن تتحول التوعية إلى حالة من الشح والبخل ومجافاة

الإحسان والفضل.

فمثلاً عند الكلام عن ضرب الأطفال ومساوئ ذلك في مقال عام، فالغالب لا يراعي البر ولا تهدف إلى تحسين العلاقة بين الوالد والولد من جهة تعامل الولد مع الوالد، كما من جهة تعامل الوالد مع الولد، وغالباً لا تأتي بنتيجة إيجابية إلا سرعة النشر من قبل إنسان يفكر بطريقة الطفل المقهور متأثرين بحوادث طفولتهم، أما النتائج السلبية فحدث ولا حرج، فزيادة الشعور بالقهر يؤدي إلى زيادة التصرفات التي تؤدي للضرب، وزيادة شعور الأم والأب بالعجز والضيق بعد قراءة هذه الصياغات غير المسؤولة يؤدي إلى مزيد من الضغوط التي تسهل فقدان الأعصاب واللجوء إلى الضرب.

وغالب من يقع في براثن العنف يكون ذلك ناشئاً عن العجز عن التصرف الصحيح أو عدم معرفة التصرف الصحيح، وبالتالي فعلاج ذلك لا يمكن أن يتم عن طريق مقالات «اللجنة والغضب على الأهل الذي يضربون أولادهم!».

ولعل شبكة صيد أو حتى سمكة أحسن وقعاً ونفعاً من توبيخ

من لا يجد قوت يومه عجزاً عن وسائل كسب الرزق!

قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى^{٢٦٣}﴾

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ [البقرة: ٢٦٣].

* * *

مرءة!

ليس بالواجب فقط نحيا!

فمعرفة القدر الواجب علينا والقدر الواجب لنا، مهم لتقدير الفضل والإحسان.

لكن هل يستطيع الإنسان أن يحيا بالواجب فقط عطاءً وأخذاً؟
هذا محال!

وبالتالي فتعريف الناس بالقدر الواجب لهم وعليهم مهم، و«حثهم» على الإحسان، وإعانتهم على البذل، واستثارة مشاعر الكرم والجود والمرءة؛ بحيث يبذل كل واحد بحسب طاقته، ويشكر بذل غيره، ولا يعاتب في نقص إحسان عتاب المستحق.

فالعلاقات بين الوالدين وولدهم لا يقوم على القدر الواجب، وسوء تصرفات الأهل لا تعني ألا نحث الأولاد على الإحسان، كما أن عقوق الأبناء لا يقابل من الوالدين بسوء التصرف.

والعلاقات بين الزوجين لا تقوم على القدر الواجب الذي فيه الكثير من المشقة والعنت للنساء والرجال.

وكذلك العلاقات بين الأصحاب، والجيران، والزملاء، وكل علاقة إنسانية كذلك.

بل حتى العلاقات السطحية التي يكون الصلاح فيها بالاكْتفاء بالحد الأدنى، فلا بد فيها من الحاجة إلى الإحسان والعطاء لوجه الله، وهنا تظهر كمالات الأخلاق، والمروءة والإخلاص الخالص من الشوائب والناس بعضهم فوق بعض درجات.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فنستحضر في هذا المقام الكثير من المعاني الجميلة التي بدأ الناس يغفلون عنها، كالعفو عند المقدرة، وحفظ الجميل، والعرفان، ونسيان الأذى، والتغافل، والإحسان مقابل الإساءة، وسلامة القلب من الغل والحقد والحسد وغير ذلك من الأمراض، ومحبة الخير لأخيك المسلم ولو أساء، والرحمة والشفقة، وغير ذلك.

فتلك درجة، فإن رأيت من صاحبك أن نفسه لا تطيق الفضل بحيث أن ذلك قد يؤدي إلى انفجار في المآل، فنعود للقدر الواجب،

ونعالج على المدى البعيد الداء الذي يحول بين العبد والإحسان إن تيسر ذلك.

فافتح للناس آفاق رحبة من حسن الخلق ومساحات من الرقي والبذل، فiaخذ كل واحد ما يطيق، ويرى أمامه الطريق وسابق له ولاحق ومساوٍ فلا يغتر بما بلغ، ويجتهد للزيادة، والله يحب المحسنين.

* * *

التربية منظومة كاملة.

إن التربية منظومة كاملة تتكون من بيت ومجتمع وصحبة ومدرسة ومحل عمل وجيران... إلخ.

وبالتالي الإنسان منظومة كاملة مكونة من آلاف الحركات والسكنات في التعامل.

فالإنسان ليس مسألة حسابية على هيئة « $1 + 1 = 2$ » بلا ريب ولا نقاش!

بل هي آلاف، بل ملايين من الجزئيات الصغيرة التي تشكل وتتكون، وعلى حسب ترتيبها وتناسقها تظهر المادة النهائية.

وإذا كان الماس متكوناً من الكربون، كما أن الفحم متكون من نفس المادة، ولكن البون الشاسع بين المادتين يرجع إلى اختلاف تكوين الجزيء الواحد وترتيب ذرات الكربون فيه.

بل الأقرب من ذلك لخيالك أنك لو في يدك مجموعة من المكعبات يمكنك عمل أكثر من شكل بنفس عدد المكعبات.

فكم من معطيات في منظومة التربية تشكل وجدان الإنسان

وتنتج ملايين الملايين من الأنماط، صُنِعَ الله الذي أتقن كل شيء؛
ليريكم آياته، فسبحان الله الخالق، فتفكروا يا أولي الألباب.

فكم من خصلة أو تصرف أو قدوة أو صحبة أو غير ذلك قد
تُزيل أثراً سلبياً لما نزعِم أنه خطأ تربوي.

وكم من خصلة قد تزيد أثراً سلبياً لما نزعِم أنه صحيح تربوياً.

وأنتم تعلمون أنه كم من ذكي توفرت له سبل الفلاح والنجاح
المطابقة للكتاب فلم يوفق، وكم من شخص حرم أسباب النجاح
المطابقة للكتاب ووفق!

ولهذا نقول:

- ١- لا تتعامل مع أخطاء الوالدين التربوية وكأنها نهاية العالم.
- ٢- دائماً هناك مخارج وطرق للعودة إلى نقطة السلامة وإن
طالت، فابحث عنها مجتهداً ولا تيأس من رحمة الله.
- ٣- إذا كنت تتعامل مع الأبناء فلا تقضِ الوقت في لعن الظلام
والظلم الذي تعرضوا له، فتضخم المشكلة بمزيد من الشعور بالقهر،
لكن اجعل همّك في بث الأمل، والسمو فوق الألم وتصحيح المسار

بحسن الاستعانة بالله.

٤- هل يمكننا أن نكف قليلاً عن الجزم المستمر بأن من تعرض فسيحدث له كذا، وأن من فعل والداه كذا، فسوف يحدث له كذا، وسيكون سلوكه كذا، ومن كان سلوكه كذا فأكيد تعرض لكذا!

قد تتخلف هذه النتائج؛ لأن التربية منظومة وليست خصلة واحدة، فكن ممن يحاول تقليل الفساد بإزالته وابتكار وسائل لتغييره، عليك التحذير منه لكن بوعى، ولا تكن ممن ينشر الفساد في صورة التحذير منه.

٥- حاول دائماً أن تكون نظرتك للمشاكل التربوية وطرق حلها نظرة شمولية مع النظرة التفصيلية، حتى لا تجد نفسك في ركن ضيق من أركان العقل عاجزاً عن التفكير الحر ومن ثم الإبداع، فإذا كانت التربية منظومة متكاملة، فلا تنظر لهذه العملية التكاملية نظرة ضيقة الأفق.

الأم المثالية... ليست تلك المطابقة لكتبهم!

إن هذا العالم صار مملاً! يعيش في حالة من المثالية البعيدة عن الواقعية على جميع أصعدته!

يرسمون صورة خيالية لا يستطيع أحدهم أن يطبقها أكثر من ساعات قليلة خلال النهار أو الليل، ثم يطالبون الناس بها، حسناً هذه ليست مشكلة، فوجود صورة نموذجية نسعى لكي نصل إليها هو أمر لا بأس به، لكن المشكلة حين يحاكمون الناس أنهم ليسوا صورة منسوخة مطابقة لمواصفات الكتاب!

الأم تبذل بلا شك مهما كانت حسب صورتهم المثالية مقصرة، والله عَزَّ وَجَلَّ جعل لها حقوقاً، وهو سبحانه يعلم أنه سيقع منها تقصير!

وحين نكون بصدد الحديث عن ذلك فنحن بلا شك نتكلم عن الأم السويّة العادية، تلك التي تجد منها نسخة متاحة تحت كل حجر! هذه الأم سيقع منها أخطاء وستتعامل مع أبنائها كل يوم بطريقة مختلفة، ستغضب وتصرخ وربما تضرب! ستفقد أعصابها، وسترتكب الكثير من الحماقات.

تحتاج إلى توعية؟ نعم بلا شك، وتغييرات كثيرة، وتدريب وصبر!

وهذا يدخل ضمن إطار عملك، أو جهتك الفردي.

لكنها في النهاية أم، ولا ينبغي أن تكون مطابقة لتلك الصورة التي رسمتها برامج التربية وكتب التربية لكي تستحق من وجهة نظرك الحقوق التي أوجبها الله.

كتب الشيخ خالد بهاء يومًا^(١): «الحمد لله وحده، لو كان من عمَلِ آبائنا لنا -ونحن صغارًا حَمَقَى لا نَعِي- من الدنيا إلا البهرج؛ أن يتصنَّعوا الفرح في العيد، ويتسموا طاوين في قلوبهم اللَّيِّ واللُّتَيَّا، محاولين أن يدخلوا علينا بهجة ليست منهم، ولا هم منها؛ لكفى بذلك في فضلهم، وحسن شفقتهم! هذا نحن، نحاول. ارفق بنا يا رب!» اهـ كلامه.

المستشار يوجه، ويعلم، ويربي، فلا ينبغي أن يكون عقله خاضعًا لأفكار نمطية براقعة، يحاكم الناس على أساسها، ويخسر من العقل والمنطق والدين بقدر ما يعتنق هذه الأفكار.

إن ديننا جاء بطريقة للحياة، تتعامل معنا باعتبار أننا بشر نخطئ لا ملائكة لا تعصي الله أبدًا! فلا ترسم لشخصية من شخصيات

(١) منشور على شبكة الإنترنت.

المجتمع صورة مثالية وتحاكمهم إليها محاكمة صارمة، فضلاً عن أن تكون هذه الصورة مستوردة من ثقافة مختلفة، فضلاً عن أن تكون أنت كقارئ لم تفهم أن الكاتب لم يرد منك أن تحاكم الناس إلى هذه الصورة وتحملهم عليها بلا أدوات ووسائل مناسبة، وبلا معطيات ومجتمع ملائم للتطبيق!

خواطر أمننا الغولة!

إن الحديث عن ضرب الأطفال صار مسألة من المسائل الحساسة التي تثير الغثيان من شدة المبالغة والتعنت.

نحن عندنا في ديننا أحكام متعلقة بتربية الأطفال ومتى يمنع الضرب ومتى يباح، وإذا صار مباحًا كيف يباح!

ولدينا آية صريحة في الترخيص في تأديب الرجل امرأته، وتدرج ذلك وصورته.

وديننا متوازن، في المنع والإباحة، بحيث لو اكتفينا بما جاء به شرعنا وفسّره وفصّله العلماء في هذه المسائل من مصادره الرئيسية المعروفة لا من القيل والقال الذي يتناقله الناس بجهل، لصار لدينا مجتمع متماسك منضبط بحق.

قبل أن أبدأ في تناول هذه النقطة، أرغب بشدة في التأكيد على أنني أؤيد كل وسائل التربية والعقاب التي تعين على تجنب الضرب بكل صورته.

لكن ليست المشكلة في «وسيلة» التربية، بقدر ما تتعلق المشكلة بسوء تناول الناس لها! فمثلاً الصراخ في وجه الأطفال ربما يكون

أشد تأثيراً سلبياً من الضرب، وهناك وسائل منتشرة أفضع تأثيراً من الضرب والصراخ، كزلق لسان الأمهات بالدعاء على الأولاد مما يرسخ شعوراً بالكراهية والبغض بطريقة سيئة للغاية.

ومع ذلك فالمساحة التي يحتلها موضوع ضرب الأطفال أكبر وتأخذ أحياناً منحني يتجه على الشرع، وهنا موضع الداء.

حينما يقرر المستشار التدخل في عمل الفقيه، أو المحدث، فيحل حراماً أو يحرم حلالاً، ويضعف حديثاً أو يصحح حديثاً، ويستنبط من النصوص ما يوافق ما يراه ملائماً، فينبغي أن تكون هنا وقفة.

• الهجوم الحاد تجاه الترخيص بالضرب المحدود الخفيف الذي لا يشبه بطبيعة الحال الضرب اليومي المنتشر في البيوت، ألا ترى أن فيه نوع هجوم موجه تجاه شيء رخص الله فيه؟

نعم يوجد سوء الاستخدام، فننبه على الخطأ بقدره وننشر الصواب ونبينه، فلا يمكن أن يكون تصحيح التطرف بالتطرف في الاتجاه الآخر.

إن من يسيء الاستخدام، لا ينتظر ترخيص الشرع ليغطي، فدعك منه ولا تغطي!

• الكلام على حديث الترخيص في ضرب الأولاد لعشر في

تعليم الصلاة، ورده لأنه مخالف لقواعد التربية الحديث!

هذه ليست طريقة المتخصصين في التعامل مع الأحاديث، ومن لم يفهم الحديث يبحث ويسأل حتى يهدأ بالاً ونفساً، أما قبول ما نشاء بالتشهي ورد ما نشاء بالتشهي... فباب يؤدي لما لا يُحمد عقباه!

• الخوض في القرآن وتفسيره بغير علم، والاعتراض على الترخيص في تأديب الزوج زوجته بشروطه، باعتبار أن هذا ظلم وغير ملائم للزمان ومكانة المرأة بزعمهم!

وأحسنهم حالاً من يبحث عن مخرج من خلال النصوص حتى لا يصادم الدين مصادمة صريحة!

وكل ذلك خطأ وتعدُّ على الشرع.

إن الإنسان لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا أذعن وخضع لله، وعلم أن شرع الله هو الحق، وأنه العدل والرحمة والإحسان، وأن الترخيص في الشيء لا يعني أنه واجب ينبغي فعله، لكن يعني أن من احتاجه بقدر، والتزم الشروط الموضوعية له من مراعاة طريقة الضرب، وسن الطفل الذي يضربه، واستنفذ الكثير من الوسائل فلم تجد، فيمكنه استخدام هذه الرخصة بقدرها.

ورغم ذلك قال النبي ﷺ عن من ضرب زوجته للتأديب:

«ليس أولئك بخياركم»^(١)، لكن الجواز مع عدم الكمال، أو الجواز مع الحاجة والتقيد والاشتراط يختلف عن التحريم بالتشهي والهوى وَلَيَّ النصوص لتوافق رغبات الناس، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض.

فإذن لعلك تعتني ألا تترك نفسك تنهش فيها ذئب الإنس والجان بمخالب الأفكار المغلوطة.

• إن ما سبق، يعينك أن تفهم طبيعة الأم التي تفقد أعصابها وتضرب أولادها، فتتكلم - بقوة قلب - بطريقة هادئة يسيرة تعين الأم على إزالة الضغوط التي تُمارس عليها من خلال المقالات والاعتراضات الحادة.

الحقيقة أن هذه المقالات والاعتراضات تعتبر من أسباب زيادة العنف وانفلات أعصاب الأم، التي تشعر بصورة مستمرة بالفشل وتتمنى الموت حتى تُجنَّب أولادها ألم الضرب، فيؤدي هذا الشعور إلى المزيد من الضغط الذي يسهل فقدان الأعصاب وانفلاتها ومن ثم الضرب وهكذا!

فالتعامل مع هذه الفئة من الأمهات بطريقة أيسر، وأهدأ، وأقل

(١) رياض الصالحين.

حدة، أفضل طريقة - من وجهة نظري - من تعاونهم على السيطرة على أعصابهم.

• علاج الضرب يبدأ من معرفة سببه وعلاجه، فبعض الأمهات عندهنّ قناعة أن التربية هي الضرب والضرب هو التربية! وهؤلاء هن الطرف الآخر المتناقض مع من يظن أن عدم الضرب هو التربية، والتربية هي عدم الضرب!

وكذلك هناك أمهات يعانين من حالات نفسية تحتاج إلى علاج، وهناك أمهات تعاني من حالات إرهاق وتعب مستمر مما يؤدي إلى حالة من التوتر المستمرة وبالتالي الأعصاب المنفلتة، وهناك من تعاني مشاكل مع زوجها، أو مشاكل مادية أو معنوية... إلخ.

فالعناية بمعرفة الأسباب وعلاجها تيسر نصف طرق الحل. ثم النصف الآخر هو:

• البدائل الواقعية التي يمكن التدرب عليها وتطبيقها في الواقع! بعض الوسائل تعتبر غير منطقية وبعضها تعجيزي، فينبغي مراعاة طبيعة وبيئة من نطرح عليه الوسيلة، وكذلك ينبغي تدريبه عليها أو على الأقل ننصح الأم بالتدرب مع صديقة لها حتى لو كانت تعاني من نفس مشكلتها بحيث يؤدي التنافس إلى نتائج طيبة.

وكثير من حالات انفلات الأعصاب تكون بسبب عدم القدرة على التصرف الصحيح في الموقف مع الشعور بالعجز.

• الرقية والمواظبة على الأذكار وقراءة القرآن، والدعاء وحسن اللجوء إلى الله، يعين الإنسان على التخلص من الكثير من السلوكيات السيئة.

فلا تنس التذكير والحث على ذلك.

اعتن بعلاج ظاهرة ضيق الأفق.

إن البعد عن زمان النبوة ونورها أورث زماننا وقلوبنا ظلمة وجهل، لا ينيرها إلا تجريد الاتباع بالسير في ذلك الطريق الذي سار فيه الأولون وتبعه فيه أهل العلم من الأئمة الأربعة ومن تفقه على طريقتهم.

وكثير من الآباء والأمهات ينبع ضيق أفقهم وتضييقهم - في غير الموضوع السليم للتضييق - من عدم علمهم بمواضع الخلاف وكونها سائغة وحصر عقولهم في عالم أو أكثر لهم نفس الطريقة والأسلوب وتكرار الكتب المعاصرة وحسب، وجحد سائر أهل العلم، مع انقطاع تام عن التواصل مع الفقه والدراسة الصحيحة أو مع أهل العلم والكتب القديمة التي تؤهل لمعرفة سعة هذا الدين وحيويته.

إذا كان النبي ﷺ أمرنا أن نعلم الأولاد الصلاة عند سن السبع سنوات، ونعاقبهم - وإحدى العقوبات الضرب غير المبرح - عند سن العشرة.

وربنا جل وعلا لا يحاسب الطفل إلا إذا بلغ سن التكليف بالإنبات، أو الاحتلام للذكور، والحيض للنساء، أو بلوغ سن

الخمس عشرة سنة هجرية.

فكيف نريد من ابن الأربع سنوات؛ وما حولها؛ أن يترك
مباحات وعاديات يمارسها أمثاله من الأطفال بأريحية؟!

هل هذا هو جزاؤه لأنه يحفظ القرآن؛ أن يعيش محروماً؟!

بعض الإخوة والأخوات لولا اللوم فقط وإظهاراً للرّضا بقضاء
الله أن الطفل لا تنبت له لحية، لأجبروا أولادهم ذوي العامين أن
يطلقوا لحيتهم! ولهذا تجدهم يجبرون الرضاعة على تغطية شعرها
لتتعلم بزعمهم الحياء!

إن هؤلاء المساكين المساجين في قيود آبائهم غير الشرعية ولا
المشروعة، عند أول منعطف من الحياة ينهلون، ليس فقط من معين
المباحات التي حرمهم منها الأهل، بل كذلك من ورد المحرمات.

• نحتاج إلى توعية الأهل بالقدر المتفق عليه بين أهل العلم
الذي ينبغي أن يتربى عليه الأطفال وهي مساحات ضيقة وهذا من
رحمة الله، ثم القدر المختلف فيه نعلم الأهل أن يتسامحوا فيه حتى لو
اختاروا لأنفسهم رأياً يلائم قوتهم وقدرتهم، ويوجهوا الأولاد إلى

سؤال أهل العلم بأنفسهم وكيف الأهل عن فرض ما اعتنقوه من آراء على أولادهم وحملهم على ذلك.

• نحتاج إلى معالجة حكيمة لتهافت الآباء على دفع الأولاد إلى الطاعات التي يحبها الأب أو الأم بالسلاسل حتى إذا صرفت وجهك عنه انصرف عنها، الطفل يتدلل والأب والأم على حافة الجنون.

• نريد أن يتعلم الأهل كيف يكون للطفل مساحة يستشعر فيها أن الطاعات نابعة من داخله وأنه يريد بها ويحبها، وذلك لا يكون إلا بغرس الأساسيات المتفق عليها والتسامح مع المختلف فيه أيضًا، مع ذكر أجور الطاعات وربط الطفل بذلك وحثه على الزيادة من النوافل وغير ذلك مما يختاره بنفسه، وتربية الأطفال تربية إيمانية صحيحة تُبنى على المدى البعيد.

فاستحضار أسباب هذه الظاهرة والتمعن فيها، وملاحظتها وعلاجها من أهم ما يعين المستشار على تقديم يد العون بالطريقة المناسبة، ويجعل نصب عينك تفهم أهمية تواصلك مع أهل العلم والفقه، ودراسة ذلك لتكميل جوانب النقص، ومحاولة سد الثغر العاري في هذا المجتمع.

وعليك أن تعرف أنك ستلقى مقاومة وأنه قد يعتبرونك متفسخ
مميع للدين، وينفروا من نصحك، ولا يعينك في علاج هذه الظاهرة
وتحمل واحتواء من يعاني منها إلا الفقه في الدين بصورة منهجية،
فتبدأ بدراسة مذهب من مذاهب الأئمة ولو بصورة مبسطة فتدرك
بوضوح جوانب السعة والمرونة والعمق والتميز والاتفاق
والاختلاف وأسباب ذلك^(١).

* * *

(١) أنصح بسماع مجموعة «المدخل إلى علم الفقه» للشيخ محمد عبد الواحد، متوفرة
على شبكة الإنترنت.

لماذا تفشل وسائل حل المشاكل؟

هذا سؤال مهم تعينك إجابته على معرفة الداء، ومن ثم حسن اختيار الدواء.

سواء كانت الوسيلة تربوية أو لعلاج مشكلة بين الزوجين، فإن الفشل في تطبيقها وارد.

وهذه بعض الأسباب:

- ١- أحياناً يكون العيب في الطريقة نفسها، لكونها غير واقعية، أو تنطلق من مبادئ لا تلائم من تريد منه تطبيقها.
- ٢- خلل في التطبيق في إحدى مراحلها، فينبغي تتبع مراحل التطبيق بدقة حتى تعرف موضع المشكلة وسببها.
- ٣- شخصية أحد الوالدين لا تلائم الطريقة التربوية وينبغي حينها إما تغيير الطريقة أو تعديل سلوك من يطبقها، أو شخصية الطفل نفسه لا تتناغم مع الوسيلة، وكذلك شخصية أحد الزوجين، حينما تكون المشكلة زوجية.
- ٤- اهتم بمعرفة العوامل الخارجية التي قد تتسبب في فشل الوسيلة التي تستخدمها، فإذا كنت اقترحت على أم وسيلة معينة لكن

- الأب غالباً سيتدخل بالمعارضة مما يتسبب في فشلها.
- ٥- كذلك تدخل أم الزوج أو أم الزوجة أو طرف خارجي بنصيحة تفسد عليك خطتك!
- ٦- أو حتى كون أحد طرفي المشكلة يقرأ اقتراحاتك ويستعد لها جيداً!
- ٧- عدم الانتباه إلى طبيعة الفروق بين النساء والرجال!
- ٨- إن الزوجة التي تشكو في مرارة من خيانة زوجها وتلعنه في غضب، ليست بالضرورة راغبة في الانفصال عنه وقد تقول إنها تبغضه وهي لازالت تحبه!
- ٩- فعدم انتباهك لهذا الأمر قد يؤدي إلى اقتراحات بعيدة عما ترغب فيه صاحبة المشكلة مما يؤدي إلى عدم رغبتها في تطبيقها مع عدم قدرتها على التصريح، فيضيع الكثير من الوقت في اقتراحات تفشل، فقط لأن صاحبة المشكلة تريدها أن تفشل!

* * *

اعتن بتصحيح المفاهيم!

نحن نعاني من خلل في كثير من المفاهيم، كمفهوم الأنوثة والرجولة والقوامة ومسئولية كل منهما، وكيفية التربية الجنسية للأطفال، ومفهوم الخيانة، والتعدد، وغير ذلك.

وكثير من المفاهيم المنتشرة في المجتمع صارت سقيمة تطمس الفطرة وتحتاج إلى كثير من الجهد لتوضيحها.

- فالأنثى صارت تبحث عن تحقيق ذاتها في غير بيتها، وتعتبر نجاحها في إدارة بيتها لا يحقق أهدافها وطموحاتها رغم أن هذه الوظيفة شاقة جداً، وتحتاج إلى قدرات خاصة وعقلية متفتحة ومرنة، لكن سوء فهم متطلبات هذه الوظيفة وحصرها في الأكل والشرب، دون العناية بحاجات ونفسيات الزوج والأولاد الحقيقية وفهم حقيقة التربية ومعنى المودة والسكن الذي إن حققته المرأة في بيتها فقد فازت هي واستمتعت بحياتها على أكمل وجه!

- كذلك نقص الرجولة وعدم فهم القوامة إلا من ناحية السيطرة المرضية، وإهمال الرجل لحاجات المرأة، بل وعدم معرفته بهذه الحاجات، وتخليه عن مسؤولية التربية، وحصره النجاح في الترقى في مجال عمله، والسهر مع أصدقائه. كل هذا بحاجة إلى

تصحيح مفاهيم وعلاج.

- عدم فهم حق الزوج والزوجة، وكيفية التعامل وفق أسس سوية في إطار من الاحترام وحسن الخلق.
- كثير من الأهل لا يدركون أهمية التربية الجنسية وتوعية الأطفال من الصغر، حتى صرنا نسمع عن مشاكل كثيرة يمكن تجنبها بشيء من التوعية البسيطة والتدرج.
- إن الحرج الشديد بين الأهل وأولادهم يجعل الأولاد يلجؤون إلى غير الأهل للحصول على إجابات مقنعة مشبعة لما يرد على أذهانهم، والنتيجة كارثية ولا شك.
- وعلى الصعيد الآخر نجد أن بعض الأهالي عندهم نوع انفتاح لا يتقيد أبداً، فكل شيء مباح متاح، وكل معلومة بتفاصيلها متاحة دون حياء ولا تدرج مما يتسبب في الكثير من الانفلاتات الأخلاقية.
- عدم الوعي بأن أولادنا بشر، فيعطي بعض الأهل الثقة الكاملة للأبناء ويظن أن الانحراف لا يمكن أن يحدث لابنه مهما كانت الإغراءات، وفي ظل ما نحياه من انفتاح وإتاحة شبكات الإنترنت للأطفال بلا رقابة نجد أننا مقبلون على كارثة كبيرة جداً إلا أن يتداركنا الله برحمته.

• التطرف في فهم نظام التعدد في الإسلام، بين جافٍ يعارضه ويشن الحرب تلو الحرب، وغالٍ يطالب النساء بالسعادة وتزويج أزواجهنَّ في منظومة عجيبة من الخلل العقلي والعاطفي.

وأدرجها هنا هذا السؤال والإجابة لتصحيح هذا المفهوم:

سؤال / كيف يمكنني كفتاة قبول فكرة التعدد وأن اقرأ الآيات بحب كما أقرأ باقي القرآن؟

جواب الشيخ محمد عبد الواحد^(١):

لا بد من التفريق بين مقامين:

١ - مقام الإيمان بأن التعدد مباح، وأن الله حكيم في تشريعه رحيم بعباده في كل ما شرعه، وأن التعدد من حيث هو مصلحة للرجل والمرأة والمجتمع، وإن كانت هناك ممارسات سيئة له كسائر الأمور، وكأصل الزواج من امرأة واحدة يعني، فهو خير، وكثيراً ما يكون في تطبيقه خلل وتعاسة.

فإباحة التعدد في نفسه خير وعدل وحكمة ورحمة، وهذا لا يغيب عن

(١) منشور على شبكة الإنترنت.

عقل من لديه أدنى وعي بالواقع وبنفوس الناس وحال المجتمعات.
وهذا المقام لا يكون الإنسان مؤمناً بالله لو اختل عنده هذا، فكِرِه
التشريع وطعن في حكمة الحكيم الخبير، ورحمته تعالى بعباده.
٢- المقام الثاني:

التعدد نفسه من حيث الأصل؛ مباح فقط، فلا هو سنة، ولا هو
واجب، ولا هو الأصل في النكاح، بل هو خلاف الأولى.
ثم يختلف حكمه تفصيلاً بحسب حال الشخص، فقد يحرم عليه
وقد يطلب منه... إلخ.

ويلتحق بهذا أمر مهم وهو: أن كون المرأة تكره وقوع هذا لها، وليس
تكره التشريع؛ أمر عادي جبلي لا ينقص به إيمانها، بل إن حبها لذلك
ورضاها بوقوعه لها؛ يُنبئ عن خلل في عقلها أو في حبها لزوجها.

وما يزعمه بعض الرجال أن الواجب على المرأة حب ذلك
والرضا به من حيث وقوعه عليها، وبعضهم يطلب منها البحث له
عن ضرة لها؛ فهذه سماجة وسخافة عقل وقسوة قلب، وليست من
الشرع في شيء، ورفع هذا السلاح في وجه المرأة أنه تشريع ويجب
الرضا به؛ هو من الكذب على الله، فالكلام ليس في التشريع، بل في

الرضا بفعل مباح أو لا، كشخص يكره أكل البطيخ (مناسب التمثيل به للحال)، لكنه لا ينكر إباحته، فهل يقال له: أكل البطيخ شرط للإيمان ومن لم يأكله كفر، أم يقال: اعتقاد إباحته فرض ومن طعن في حكمة الله في إباحته وأنكر حِلَّهُ فقد كفر؟ الثاني بلا شك.

بل من حق المرأة طلب الطلاق لذلك، ومن حقها اشتراط عدم التعدد في العقد، والكلام هنا عن الحق وليس عن الأولى في حقها وما يحسن فعله، فهذا يختلف بحسب الحال.

والحقيقة أنه ليس من الرجولة ولا المروءة تهديد المرأة بذلك والتنغيص عليها بمناسبة وبدون مناسبة أنني سأتزوج عليك، فهذا من عته الزوج ومرضه النفسي وسوء عشرته.

تباديل وتوافيق.

كل الحالات الإنسانية لها طرفان متطرفان وبينهما ما لا يُحصى من الحالات بحسب التباديل والتوافيق للظروف والشخصيات.

إجابات العموم قد تتسبب في كارثة فلكل حال حل، ولكل مقام مقال.

لا شك أن العقل يحتفظ بقواعد عامة، يبني عليها هذه الحلول الخاصة بكل حالة، لكن التعامل مع النفوس بالتنميط الشديد أو ضيق القاعدة دون مراعاة سائر القواعد وشمولها، وشيء من الذكاء والمرونة هو أمر ينبئ عن مشكلة في التفكير.

ومن أمثال ذلك الاعتماد الكلي على اختبارات تقييم الشخصية، والجزم بنتائجها رغم كونها غير دقيقة غالباً ونمطية جداً، والأكثر كارثية أن نضع الحلول بناء عليها بالكلية فيكون كالبناء على شفا جُرْفٍ هارٍ، أو على أساس من ماء أو هواء!

الاستفادة من هذه الاختبارات قد يكون جيداً ويعطي نتائج قريبة، لكن الاعتماد عليها ليس هو السبيل الصحيح.

كذلك قد تكون القاعدة صحيحة جداً وقابلة للتطبيق العام،

لكن لها استثناءات أو قيود مهمة نغفل عنها، أو حتى مجرد عدم مراعاة احتمال أن وجود حالات تشذ عن القاعدة، فلا ينبغي التشديد في تطبيق قواعذك ونظرياتك وعدم الخروج عنها أبداً.

* * *

فصل
كن تقياً لا بارداً!

خَطَّ الفقيه في كتب الفقه عجباً!

تراه يقول يحرم، لكن لا ينقض الوضوء... أو ينقضه لكن لا
يوجب غسلًا، أو يوجب غسلًا!!

كأنها أرادوا أن يقولوا لك، إن كنت مذنبًا فلا شيء يحول بينك وبين
الصلاة، لا شيء يمنعك من وضع جبهتك منطرحًا بين يدي ملك
الملوك، باكيًا ذليلاً معترفًا بذنبك، سائلًا سيدك مغفرة منه ورحمة.

يقول الفقيه دون أن يكتب: إن لم يكن ذنبك يمنعك من التطهر
ظاهرًا، فلا يمنعك الذنب من الرجاء وتكرار التوبة معرفة أن الله
قابل التوب وغافر الذنب.

صلّ وتطهر لصلاتك... فإننا لم نغفل عن ذكر أحكام تطهرك
لأنك... مسلم!

• كن تقيًا تحشى الله وتحبه، تنادي الناس أن هلمُّوا إلى ما فيه
صلاح دنياكم، وتنكسر لله عالمًا أنه لو خلاك ونفسك هلكت! ولا
تكن باردًا متعاليًا لا تشعر بالناس وضعفهم وغلبة الشهوات، إنك
تذنب وهم يذنبون! لكنك غافل يا فتى.

سنتناول في هذا الباب الحديث عما يهم المستشار في أبواب الاستشارات الخاصة، ويمكننا أن نقول إن التعبير بمصطلح «الاستشارات الخاصة» يقصد به كل كلام متعلق بمسائل تسبب حرجاً عادة في تناولها، من أحكام تخص النساء، أو تخص العلاقة بين الرجال والنساء.

١- ذنوب الخلوات... لقد أسأت الفهم يا فتى.

٢- تعلم!

٣- حياء!

٤- تفصيل بقدر الحاجة!

٥- كن عاقلاً!

٦- حدد موضع الخلل بدقة!

٧- حب أم عزلة شعورية؟

٨- واقع أم خيال؟

٩- تصحيح مفاهيم الحب!

١٠- لا رهبانية في الإسلام!

ذنوب الخلوات... لقد أسأت الفهم يا فتى!

هناك سوء فهم بلا شك في تحرير مصطلحات كـ«ذنوب الخلوات»، و«النفاق» و«مبارزة الله بالمعاصي» ونحوها! والسبب الرئيسي في ذلك، هو ظن البعض أن الهدف هو أن يمر اليوم على الواحد من بني آدم بلا ذنب، كيوم جبرائيل وميكائيل! وهذا انحراف في فهم الدين، لقد سجلت الهدف في مرماك يا فتى والعجب أنك لازلت تهلل سعيدًا بالنتائج الحمقاء!

إن الهدف الحقيقي من التدين هو أن تظل صابرًا على الطاعة ومصابرًا على ترك المعصية حتى تلقى الله على الطريق، قد سلم قلبك من كثير من الدغل والآفات، مجاهدًا في ذلك راجيًا رحمة الله، خاشعًا له مستعينًا به مفتقرًا إليه محبًا!

ولنفهم هذا الكلام فلدينا قاعدتان أساسيتان:

الأولى: أننا سنذنب! لا بد من الوقوع في الذنوب لأن الإنسان خلق ضعيفًا له شهوة تميل به عن طريق الحق، وغفلة إذا هجمت على القلب أو على العقل، اخترقت القلعة.

نعم ينبغي أن نجاهد الهوى والشهوة ونحاول الاستمرار على

اليقظة، لكن ستمل وتضعف وتنسى!

هل تذكر هذا الحديث؟

يقول رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر الله لهم»^(١).

إذن ستذنب، وسيذنب الناس، والسعيد من استغفر وتاب، وأكثر من الطاعات، فإذا أذنب ثانية ولو نفس الذنب، تاب وهكذا جهاد حتى الممات.

الثانية: المجاهرة بالذنوب حرام!

فإذن سنذنب وسيكون الذنب بعيداً عن أعين الناس.

إذن ليس من المعقول أن يكون ما ذمه السلف الصالح من «ذنوب الخلوات» و«مبارزة الله بالمعاصي» و«النفاق» هي الذنوب التي ترتكبها ويرتكبها الناس كل يوم بعيداً عن الأعين بضعف منك، ولو كانت هذه الذنوب متعلقة بالشهوة، لأنه ببساطة كل ذنب يصدر عن شهوة سواء كانت شهوات الفروج أو البطون أو النفوس!

(١) رواه مسلم.

فالنفاق هو أن يبطن العبد الكفر ويتظاهر بالإسلام.
والرياء هو أن يعمل العمل الصالح يطلب به الدنيا أو وجوه الناس.
وذنوب الخلوات هي المقترنة بمبارزة الله بالمعاصي والوقاحة والتبجح مع التظاهر بالصالح طلباً للدنيا أو الرفعة بين الناس بوصف الصلاح، وهو يبطن القدر بلا ندم ولا حياء ولا انكسار لله، فعله شيطان في الخفاء وقلبه شيطان، ويتظاهر أنه ملاك، ولا تنحصر ذنوبه الخفية تلك في شهوة الفرج، بل شهوات الرياسة والكبر والعجب، والفوقية، وغير ذلك من أمراض القلوب قد تكون أعظم ممن زل بذنوب.

والأحاديث وأقوال السلف في هذا كثيرة كبيرة لكننا نقرأ ولا نفهم، أو نفهم لكننا لا نفقه فنسقط في فخ اعتبار أن هذا الكلام لغيرنا لا لنا، وأننا ينبغي أن نكون فوق القمة، وكيف نبلغها؟ بالهبوط من الطائرة عليها مباشرة لا الصعود المغرب بالمشاق من سفح الجبل إلى قمته!

إن العبد المذنب المنكسر لله، الذي يتمنى أنه لم يقع في الذنب، الذي يسأل الله أن يغفر له الذنب ويعينه على التوبة، الذي يجتهد في الإخلاص بطاعته، ليس هو ذاك الشيطان المتدثر بجلد الضأن،

المبارز لربه بذنوب الخلوات المنافق!

ومعرفة ذلك مستعيناً بالله في فقهه وتطبيقه لعله وقاية لك من
شر نفسك، ويعينك على تقديم يد العون للناس، وبالله وحده
التوفيق وله وحده الحمد والمنّة.

تعلم!

تعلم فقه الوعظ، وأحكام الحرام والحلال ودرجات الممنوع من كراهة وتحريم والفرق بين الكبائر والصغائر.

تعلم متى تتكلم ومتى تسكت، متى تخوف بالله، ومتى تستشير محبة العبد لربه، وكيف تفتح له باب الرجاء فتلجأ منه ساجدين تحت العرش!

تعلم الأحكام الشرعية التي نحتاج إليها جميعاً يومياً.

وهو أمر لا يخص المستشارين فحسب بل لا بد من نشر هذا العلم، لا بنفسك إلا أن تكون مؤهلاً، لكن بالدلالة على أهل العلم الذين يُعلمونه ويُتقنونه وَيُصْلِحُونَ لبلاغه.

فأحكام الحيض والنفاس والعلاقة الزوجية وأسباب الغسل ونواقض الوضوء وفقه الطهارة بالكامل هو مما ينبغي عليه صحة الصلاة التي هي ركن الإسلام وعموده.

فإن كان فقه هذا الباب مهم للجميع فهو لمن يتصدر للاستشارات أهم.

كذلك تعلم ما ينبغي تعلمه من الناحية النفسية والطبية ومعرفة

الحاجات والدوافع الأساسية.

ولا بد كذلك من معرفة المضار البدنية والنفسية والاجتماعية المتعلقة بكل فعل وتوضيحها بأسلوب لائق، فكثير من المتصدين يجهل أضرار الأفعال، جهلاً مركباً فيهم، أو جهلاً بسيطاً فيكذب ويقول خلاف الحقيقة.

يقول ابن تيمية: «والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، كما يعرف الخيرات الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، فيفرق بين أحكام الأمور الواقعة الكائنة والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة ليقدم ما هو أكثر خيراً وأقل شراً على ما هو دونه ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن من لم يعرف الواقع في الخلق والواجب في الدين لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»^(١).

(١) قاعدة في المحبة، ابن تيمية.

حياء!

إن اهتمام الإسلام وضرورة اهتمام المتصدرين لمعالجة مشاكل الناس، بتصحيح المفاهيم وحل هذه المشاكل لا دفنها لا يعني أن يسمح بتناولها في التناول العام بالذات بأسلوب يفتقد إلى الحياء.

واعتبر بأسلوب القرآن في الكنايات مع البيان الشافي.

نعم، قد تحتاج إلى أسلوب آخر أو بيان أكثر وضوحاً أو ألفاظ لا تحمل عدة معان، لكن أن يكون هذا بقدر الحاجة، وفي موضعه يختلف عن استخدامه دائماً وفي كل وقت وفي كل مناسبة.

ومن الحياء أن يكون الأصل والعادة عند البيان المفصل توجه الخطاب من امرأة لامرأة أو من رجل لرجل، فإن عرضت حاجة تنقلنا عن ذلك الأصل فلا يكون ذلك قبل الرجوع إلى أهل العلم للسؤال عن حكم ذلك.

وفي صحيح البخاري تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها من الحيض. فأمرها كيف تغسل، قال: «خذي فرصة من مسك فتطهري بها» قالت: كيف أتطهر؟ قال: «تطهري

بها» قالت: كيف؟ قال: «سبحان الله، تطهري». فاجتبتها إلي،
فقلت: تتبعني بها أثر الدم.

وفي رواية مسلم، قالت السيدة عائشة: «نعم النساء نساء
الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين».

تفصيل بقدر الحاجة!

إذا كان التفصيل مطلوبًا فلتكن الإجابة بقدر الحاجة مع التأكيد على حسن فهم السائل للإجابة.

لكن مما ينبغي مراعاته أنه ليس من الصواب الاستفاضة في سماع تفاصيل الأحداث بما لا يحتاج إليه، لا يزيد عن كونه تهييج للمستشير وتذكير للمعصية ومباهاة بها وربما صار من قبيل المجاهرة.

كن عاقلًا!

- لا تستهزئ!

إن الرد على هذه الأسئلة أو بيان هذه المسائل ليس مثار سخرية ولا تنقص من السائل ولا تندر عليه، ولا ينبغي أن يتخذ كوسيلة للضحك واللعب.

- لا تحتقر!

لا تحتقر المستشير مهما تعاظم عليك قوله، حرصًا على سلامة دينك وقلبك أولًا، ثم حرصًا على سلامة قولك ونصحك له ثانيًا، فإن اللسان مغرفة القلب ومهما حاولت إخفاء هذا الاحتقار سيظهر

وسيكون سبباً في إفساد النصيح وتعكير الصفاء بشوائب وكدر.
فتفقد قلبك وليس لسانك وكلماتك فحسب، فإن لسانك لن
يغترف إلا من طيب أو خبيث.

وكثير من المستشيرين يتهرب من مستشار بعينه رغم ما يظهر له
من حلاوة اللسان وطلاوته، ولكن في الواقع ما في قلب هذا
المستشار قد نضح على جوارحه هنا وهناك ما يدل على ما في قلبه.

قد لا يستطيع المستشير التعبير وتحديد موضع الأذى، ولكنها
وصلت إليه، من همسة أو غمزة لم تلحظها أنت، ولكن رآها الذي
يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وعقيدة أهل السنة أن الجوارح والقلب يتلازمان.

• لا يكن رد فعلك عاصفاً!

لا تقابل الاستشارات الخاصة برد فعل تهويلي، لا بد من ضبط
الأعصاب والمشاعر ومراعاة نقاط الضعف البشري.

تذكر ما سبق في فصل عمق ولآلى؟

فإن النبي ﷺ جاءه فتى يطالب بالإذن في الزنا، فلم يصرخ ولم
يقفز ولم تتسع عيناه وحدقتاه تبرقان، بل حاوره بهدوء ولطف حتى

عبر به إلى بر الأمان.

تذكر حديث الفضل وسبب نزول الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾.

ثم مع ذلك تذكر أن عنوان هذا الفصل: كن تقيًا... لا باردًا!

• لا تكذب، ولا تهول!

عادة قبيحة مذمومة شرعًا!

يظنون أنهم يكذبون له ولمصلحته.

يريد أن يجعل صاحبه يترك فعلًا، فيضيف من جعبته ليقبحه، وسواء كان هذا الكذب متعمدًا أو عن جهل فحين يدرك صاحبك أنك كاذب لأننا في زمن الانفتاح، فستفقد مصداقيتك عنده أولاً وسيكون سيره في الطريق العكسي هو رد فعل لكذبتك؛ مساوية لها في القوة ومضادة لها في الاتجاه!

بخلاف أن المتكلم بجهل وضع، والكاذب كذلك وضع، فلا يليق بك هذا المقام، فاحترس!

• نبرة طبيعية هادئة!

ما أجمل ردك حين يكون رزينًا هادئًا ودودًا، ونبرة صوتك طبيعية يزداد فيها ما يحتاج إليه السائل ولم يطرحة جهلاً أو حياءً.

• علمه أن تكرر وقوع الخطأ ليس نهاية العالم!
علمه كيف يجاهد، كيف يستمر ويصبر على الطاعة وعن المعصية، علمه طول النفس، وترك اليأس، علمه الرجاء والدعاء، علمه أن الموت على الطريق أفضل من الانحراف عن الطريق أو تركه بالكلية أو المضي فيه عكس الاتجاه الصحيح، علمه أن عدم تكرار التوبة سيعني بالضرورة مزيد من وحل المعصية، علمه أن القنوط من رحمة الله أعظم من هذا الذنب الذي يغلبه، وأنه لو جاء ربه بقراب الأرض خطايا ولم يشرك بالله شيئاً لآتاه الله بقرابها مغفرة كما في الحديث الصحيح.

علمه الدين الحق، وكيف يصل إلى الدين الحق، وألا يجعل بينه وبين الله واسطة في التوبة.

• تدرج وصبر!

ليس المقصود هنا صبر صاحبك على الاستمرار كما قد يتبادر لذهنك!

بل القصد تنبيهك أنت على الصبر فلا تدفع صاحبك دفعة قوية يفتر بعدها فتوراً قد يؤدي إلى انتكاسة محبطة.

فاللعب على أوتار العاطفة ومخاطبة الوجدان ينبغي أن يكون بمقدار ملائم للخطاب العقلي والقوة العملية، فالتربية والتغيير ليست قفزات عشوائية، بل حتى القفز له أصول حتى لا ينكسر صاحبك سريعاً.

• مكر مفر مقبل مدبر!

• لا بد أن يكون للمستشار نظرة ثابتة يستعين فيها بربه، وينظر هل المستشار بحاجة إلى عطف أو توبيخ؟ رجاء أم تخويف؟

• وليكن هذا بعيداً كل البعد عن الهوى والنظرة الشخصية والغضب أو الشفقة الصادرة تلقائياً من المستشار.

وكذلك لا ينبغي أن يكون باستمرار خاضع لطبيعة المستشار الشخصية ومزاجه، وينبغي أيضاً تخلص النفس من حظوظها، وبالتالي فهو ليس أمراً يسيراً لكن الإخلاص والاستعانة بالله تفتح أبواب الخير.

وفي الاستشارات المكتوبة يكون من السهل أن يقرأ المستشار المشكلة عدة مرات ثم إن وجد في نفسه انفعال من غضب أو شفقة يتركها قليلاً ثم يعاود القراءة أو الرد.

ولعل في ذلك نوع تدريب جيد.

حدد موضع الخلل بدقة

عند معرفة أن الانتكاس قد تكرر أكثر من مرة لا بد من البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا الانتكاس ودراستها ووضع اليد على نقاط الضعف وترميمها إذا لم يكن في المقدرة فعل ذلك، فيعلم صاحب المشكلة كيف يضع يده بصدق على هذه الأسباب ويرممها إن كان يريد فعلاً الخروج من المشكلة.

قد يكون الخلل أنت فاتركه لغيرك، فقد تكون أنت بالنسبة إليه كالمغناطيس يؤثر على قلبه الحديدي بالسلب والميل، أو كالماء يسبب له الصدأ، لا لعيب فيك يحتاج لتغيير، فربما استفاد غيره بك كما أنت، والله خلق الناس أصنافاً ومعادن، وبعض المعادن تتفاعل بالسلب مع معادن أو أملاح أخرى.

فلا تبتئس بذلك، لأن من يريد الصالح والإصلاح، لا يهتم إن كان ذلك يتم على يديه أو يدي غيره، المهم بلوغ الهدف المنشود، فنق قلبك.

كذلك ينبغي معرفة أنه كثيراً ما يقع أصحاب هذه الاستشارات في الكذب لمدارة حجم المشكلة، إن كان التعامل لا يضره ذلك ولا يؤثر فلا داع لإراقة ماء وجه صاحبك.

وعلى سبيل المثال:

من مشكلات العادة السرية أنها تسبب شعورًا بالذنب شديدًا
واكتئابًا واحتقارًا للنفس.

ونفس هذا الشعور المصاحب لها يسبب زيادة الضغط النفسي
المؤدي للوقوع فيها.

فتصبح الدائرة مغلقة، وكسرها يحتاج إلى معرفة أضعف
الحلقات حتى تطرق عليها فتتكسر.

كذلك في حالة تكرار الانتكاس لا بد من معرفة الأبعاد المتعلقة
بالمشكلة بصورة أدق ومن المهم عندها دعم وتأکید ظاهر وباطن أن
غرضك المساعدة وأنه لا يمكنك أن تحتقر صاحبك أو تفضحه، وأن
المستشير ليس بحاجة أن يرتدي أمامه أقنعة تظهره بمظهر جيد؛ لأن
هذا لا يساعد كليهما على الوصول للحل.

وأخيرًا قد يكون الخلل عدم رغبته الحقيقية في التغيير، فتكتفي
بالدعاء، ولا تقاطعه مقاطعة جذرية، تذكر أن البتر ليس حلًا إلا أن
يصيبك ضرر أو مفسدة.

حب أم عزلة شعورية؟

كتب بعضهم أنه لو اجتمعت ميدوسا وفرانكنشتاين على جزيرة مهجورة لهما ببعضهما حباً!

كثير من قصص الحب التي تتعامل معها تكون من هذا القبيل، وسأهتم هنا بذكر نوع واحد من هذه القصص لأن فهم دوافعها تعين على تقديم نصيحة منطقية وصحيحة.

إن العزلة تبدأ من داخل الإنسان، تشعره بغربة ووحدة مهما كثر الناس حوله، فإذا وجد من يشاطره شيء من شعوره صار يسمى ذلك حباً من النظرة الأولى!

في مجتمعات التيارات الإسلامية، حيث يعاني الفرد العزلة عن المجتمع المسلم الكبير، والقهر والظلم، فهي عزلة يمارسها المجتمع بعزل هؤلاء عنه، ويمارسها هؤلاء بالانعزال عن المجتمع.

ولهذا فمن السهل السقوط في براثن مشاعر خادعة لمجرد رؤية من يظن أحدهم أنه أو أنها تشاركه العيش فوق هذه الجزيرة المعزولة شعورياً عن محيط المجتمع العميق.

وأول علاج ذلك العشق الكاذب الوعي بهذه العزلة الشعورية والخروج منها بطريقة صحيحة، والوعي بالحاجات النفسية، والوعي

بمسؤوليات الزواج وتحدياته والعناية بما يحتاجه الإنسان في شريك حياته وأنه أوسع من مجرد الاشتراك الظاهري في فكرة واحدة ضيقة مع تباين ونفور في سائر الصفات.

* * *

واقع أم خيال!

إن الواقع المؤلم الذي نعيشه يدفع كثيرًا من الناس للفرار، وقد صار الفرار متاحًا للجميع عبر شبكات الإنترنت، ومواقع التواصل التي يمكن أن يصيرها الإنسان واحة خضراء في صحراء الواقع الأليم!

كما أن شبكة الإنترنت يمكنها أن توفر الكثير من المتع المحرمة بانفتاح غير مسبوق، ومهما ظن الإنسان أنه يمكنه التحكم أو الرقابة، فهناك مخارج خلفية لكل مصيبة.

• أحيانًا يكون من الحكمة إخراج صاحب المشكلة من العوالم الافتراضية

• من خيال وإنترنت، وليس ذلك بقطع الاتصال أو بسحب الهاتف!

بل بقناعة الإنسان أن لديه أعمال أخرى مهمة، وشغل وقته ودفعه إلى الدور والمساجد والمساهمة والمشاركة في الأعمال الخيرية العملية وليس مجرد دفع المال.

• حث الناس على بذل جهد عضلي وعقلي يومي مناسب يساعد على الخروج من العوالم الافتراضية لا سيما أصحاب الخيال

الخصب، فحتى مع عدم وجود الاتصال بالإنترنت فإن الخيال يلعب دورًا خصبًا إذا أسيء استخدامه صار منهكًا لصاحبه.

• مساعدته على اختيار الصحبة الصالحة، والبعد عن الصحبة السيئة التي تعرقل طريق التوبة، وتوفير اقتراحات ووسائل بديلة تعين على التوبة في حالة عدم وجود صحبة مناسبة لأي سبب، ومساعدته أن يكون هو صحبة صالحة لغيره.

• تقوية الجانب الإيماني بأساليب متعددة، وقوة النفس مستعينًا بالله مع تعريفه طريق السير إلى الله.

تصحيح مفاهيم: أنواع المحبة:

سترى أناسًا يظنون أن حبهم لأولادهم يدخل في المحبة الشريكية، وأن هذه المحبة ستدخلهم إلى النار، فهم مجتهدون في التخلص منها وجفاء أولادهم بعزم ونية، وسترى أناسًا يظنون أن العشق والتودد لغير زوجه بكلمات الحب هو أمر لا بأس به، فينبغي فهم ذلك وضبطه فاخترت ما بينه ابن القيم في كتاب «الروح» مع تقديمه في ثوب سهل ومرتب وزيادات وفوائد:

أنواع المحبة:

محبة الله: وتشمل محبة ما يحب الله ومحبة من يحب الله.

فهي محبة لله تعالى، وفي الله، وبالله، ولوجه الله.

ثم المحبة مع الله؛ وتنقسم إلى قسمين:

نوع يناقض المحبة الشرعية وهي المحبة الشريكية:

١ - المحبة الشريكية:

وهي ضد المحبة الشرعية وفيها تسوية أو صرف شيئاً مما ينبغي

صرفه لله تعالى لغير الله.

ومحبة الله فيها تعظيم خضوع وإذعان واستسلام ورهبة فهي غاية الحب مع غاية الذل أي أن محبة الله هي العبادة في الأصل، فيصرف هذا النوع من المحبة القلبية المتضمنة للعبودية والذل لغير الله تعالى؛ وهي التي قال تعالى عنها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وهي تختلف عن النوع الآخر وهي:

٢- المحبة الطبيعية: أي ما يميل له القلب بطبعه وهواه، وتنقسم إلى ثلاث أقسام:

١- محبة السابقين: أي هي محبة يمارسها من سبق بالخيرات.

وهي استغلال المحاب الطبيعية إلى محبة خالصة لله بالنية الصالحة.

وكلما زاد رصيدك من ذلك زاد الأجر.

فإذا أحب طعاماً أو اشتهاه لم يهناً به حتى يحتسب عند ربه الاستعانة على طاعته، وإذا أحب أهله وأولاده لم يهناً بهم حتى يكون لهم عوناً على الطاعة ويتخذ منهم قرابة إلى طاعة، وهكذا.

وانظر هنا لست مطالباً بترك هذه المحاب أو كراهة ما تحب بل فقط ابتغاء الأجر تحتسب وتحسن استغلالها في الخيرات والطاعات.

فيستغل كل ما تهواه نفسه في طاعة الله تعالى حتى تصير نفسه لا تحب شيئاً إلا لله ولا تنهأ بشيء إلا إذا استعانت به على طاعة الله، فطاعة الله نصب عينيه.

وهذا النوع ملحق بالمحبة الأولى الشرعية ويثاب عليه الإنسان.

٢ - محبة المقتصدين: أي أنها شعور مقتصد لا لك ولا عليك.

فيحب ما يهوى القلب محبة لا يستعين فيه على طاعة الله ولكن لا يستعين فيها أيضاً على معصية الله تعالى، ولا يعصي الله تعالى به.

فهو مقتصد، لا أجر ولا إثم، ولكن المشكلة أنه على قدر تعلق قلبه بالملاهي على قدر ما ينقص ذلك من إيمانه لما أصابه من الغفلة والتلاهي.

ونحن لا ننفك عنها ولا يمكن أن ينفك عنها الإنسان، ولهذا قال النبي ﷺ لحظلة في الحديث: «ولكن ساعة وساعة».

وإليك الحديث الذي رواه مسلم عن حظلة يقول: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حظلة؟ قال: قلت: نافق حظلة. قال: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ. يُذكرنا بالنار والجنة. حتى كأنا رأيي عين. فإذا خرجنا من عند رسول الله

ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة. فنسينا كثيرًا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» قلت: يا رسول الله نكون عندك، تُذكّرنا بالنار والجنة؛ حتى كأننا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك؛ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة، نسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات.

٣ - محبة الظالمين: أي تلك المحبة التي تغلب صاحبها فتدفعه للمعصية لتحصيل ما تهواه نفسه فيعصي الإله راغبًا في إشباع ما يشتهي دون زجر ولا وعظ.

وهي محرمة وصاحبها واقع في الإثم والمداومة على الاستجابة لها لا تؤمن عواقبها.

وهي كسائر المعاصي، ويتعامل معها كما يتعامل مع المعاصي، وتعالج كما تعالج المعاصي.

• ومما ينبغي فهمه أن الحب والعشق يختلف عن الإعجاب بعقل شخص أو صوت قارئ أو خصلة طيبة في إنسان، وبعض الناس لا يفرقون بين هذا وذاك، ويؤنبون أنفسهم على أي شعور طبيعي ويعتبرونه فتنة حتى تصير قلوبهم قاسية وأخلاقهم حادة يزعمون أنهم بهذا على جادة التقوى، والحقيقة أن هذا أمر يحتاج إلى عناية وعلاج.

لا رهبانية في الإسلام

إذا كان النبي ﷺ تزوج بإحدى عشر امرأة جمع منهن تسعة، وكان ربما طاف عليهن بغسل واحد في ليلة، وإذا كان نبي الله سليمان تزوج تسعة وتسعين امرأة، وتزوج الصحابة والعلماء من بعدهم، فكيف نستسيغ اليوم الحديث عن الشهوة باعتبار أنها أمر دنيء، أو أن الذي لديه شهوة هو شيطان مما هو أقرب لدين النصارى منه إلى الإسلام؟

إن الإسلام دين واقعي لم يحرم قضاء الشهوة مطلقاً لكن جعلها مقننة، وعلمنا النبي ﷺ كيف نتعامل مع هذه الأمور بأسلوب واقعي، فمن التشريع للزواج بأكثر من امرأة، إلى تشريع الطلاق وإمكانية التزوج مرة أخرى بشخص آخر، إلى الصيام لمن لم يستطع، إلى حيوية هذا الدين بحيث يظل الشباب دائماً: نساء ورجال في همة وجهد للعمل على رفعة هذا الدين مما يهذب الشهوات.

إن من أسباب سهولة الوقوع في الأخطاء المتعلقة بالشهوة، التعامل مع الشهوة بطريقة خاطئة، فالشهوة كالحاجة إلى الطعام والشراب، تهذب وتوجه، أما مقاومتها بطريقة محاولة البتر فلا يؤدي

إلا إلى زيادتها على عكس المتوقع.

بخلاف معرفة أن الكمال البشري، لا يمكن أن يعارض كمالات الأنبياء، فإذا كان الأنبياء أحل الله لهم الزواج وتمتعوا به فنخرج من ذلك بفهم سديد لكون الشهوة في الإسلام تعتبر من الحاجات البشرية وكمالات البشر، لكن تقنن وتوضع في موضعها الصحيح.

* * *



فصل

تلك الكرات السوداء!

«سحاب من الحزن... ضباب... لا بل أعني هذه الكرات
السوداء بداخلي!
أشعر بها تحول بيني وبين الصدق مع نفسي.
احتلت مساحات قلبي فضاقت صدري!
أطبقت على وجداني فأظلمت نفسي، وانطفأ بريقي، ولم يبق من
لهيب الحماس إلا رماداً؛ يومض فيؤلم وينثره الرياح... فأختنق!
سجدة وبكاء!
تغسل هذه الأدران... تزيع هذه الكرات السوداء الملبدة بالغيوم
في سمائي.
نعم أشتاق لتلك السجدة لكن يحول بيني وبينها ضيق صدري
وظلام نفسي.
قم إليها ولو متثاقلاً!
تجر جر قدميك... تعلم أن تحت الرماد شوقاً إلى المولى جل وعلا.
قم إليها واطرق بابه في حياء وخفوت.
سائلاً إياه عوناً على نفسك...
قم إلى ربك وناجه قائلاً: يا رب هذه بضاعتي المزجاة بين يديك،
ولا رب لي سواك، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً.

- عبدك الفقير وأنت الغني .
عبدك الضعيف وأنت القوي .
إن لم أكن أهلاً لرحمتك، فرحمتك أهل أن تصل إلي»^(١) .
- ١ - هل المرض النفسي عقوبة؟
 - ٢ - المؤمن... ألا يمرض نفسياً؟
 - ٣ - الإيمان عامل مقاوم وعامل معالج .
 - ٤ - كل واحد في نفسه ملك .
 - ٥ - علاج المرض النفسي
 - ٦ - فرق يفقهه السعيد .

* * *

(١) مقتبس من دورة علاج الاكتئاب والوسوسة .

هل المرض النفسي عقوبة؟

مختصر مفيد:

١- ما الهدف من الخلق؟ الابتلاء! الابتلاء بالنعم والنقم، الابتلاء بالأمر الشرعي «افعل ولا تفعل».

٢- الابتلاء: يرفع درجات الطائع، ويكفر ذنوب العاصي، وعذاب للكافر.

حقائق:

• البلاء لا يعني أن الرب غاضب على عبده، كما أن الرزق وسعته لا تعني أن الرب راضٍ وأنت القريب الحبيب!

فإن اختار الله لعبده العافية ورزقه في الدنيا سعادة فلا ينبغي أن يظن أن هذا إنما كان في مقابل طاعته أو قربه من الله، ثم هو يجول بعينيه ينظر إلى حال من ابتلاه الله بالحزن والشقاء فيظن أن هذا كان لسوء ديانته أو بعده عن الله.

وهذا إنما هو فخ من فخاخ الشيطان.

فمن ابتلاه الله بالنعمة، وابتلى غيره بالشقاء فإن ذلك لم يكن لا لفضل طاعتك ولا لقلة طاعته.

وكم من مجدٍّ في نيل مجدٍ لا يحصله، وكم من راقد على فراش الأمانى، رُزق في الدنيا بما يسره، وإنما كل ذلك متاع؛ ليلبونا الله فيما أعطى وفيما منع، وإن الآخرة هي دار القرار.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَزُخْرُفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥) [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

جاء في تفسير الجلالين: «﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الكفر ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ كالدرج من فضة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلون إلى السطح»، اهـ بتصرف يسير.

فإن ابتليت بالنعمة فلا تستطل على الخلق ولا تركز إلى نفسك وتحسب أنك أوتيته على علم... بل هي فتنة! فاعمل فيها عمل القلب الصالح، واعلم أن ذلك محض فضل الله أناكه الله بلا استحقاق، ولو عاملنا الله بعدله لاستحققنا للهلاك في الدنيا والآخرة.

فإنا والله لا نوفي شكر نعمة الماء البارد ولا الصحة ولا البصر ولا أدنى من ذلك ولا أكبر، ونذنب ونحن غافلون ثم ننظر في نعم الله

فتوسوس لنا أنفسنا.

إن ربنا قد أكرمنا بقوة إيماننا وطاعاتنا، بل هو عَلَيْهِ السَّلَام على الطاعة أعانك ثم عافاك وآواك، وإن توفيق العبد للحمد نعمة يستحق الله بها الحمد، فكيف بما نرفل فيه من النعم؟!

ولو رفع الرب يد التوفيق لهلكنا، ولو خلانا وأنفسنا وفتن الحياة في قمم لضللنا، فلا تغتر رعاك الله، فإننا مساكين، نسأل الله النجاة ولو كفافاً لا لنا ولا علينا.

ودونك السير وقصص الأنبياء والصالحين نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- قصة الغلام والراهب المشهورة... أهل الإيمان كلهم قتلوا!
- قصص أنبياء بني إسرائيل ومن أقطعها قتل نبي الله يحيى.
- ابتلاء النبي ﷺ ومن معه من أهل الإيمان في مكة حتى أكلوا ورق الشجر.
- ابتلاء النبي ﷺ في عام الحزن وغزوة أحد.
- قول النبي أنه يوعك كما يوعك الرجلين من المؤمنين رفعة وزيادة له.
- قول النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا حزن ولا

أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياها»^(١).

- قول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه»^(٢).

والمأمل في سير الأنبياء والصحابة والصالحين يجد من ذلك كثير.

- من ظن أن المرض النفسي عقوبة للكافر بالمعيشة الضنك في الدنيا فهو مخطئ، وليس هذا هو المقصود من الآية وسيأتي.
- البلاء في الدنيا بالنعم مع الكفر هو الاستدراج وهو العقوبة الحقيقية، فصاحبه مهما عاش في الدنيا سعيداً فهي سعادة زائفة، ويوم القيامة حسرة وندامة.

- والبلاء في الدنيا بالنعم أو الآلام للمؤمن بين تكفير خطايا وذنوب، ورفعة درجات.

فالنبي ﷺ يقول: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(٣).

- المرض النفسي بلاء كسائر الابتلاءات، مثل المرض العضوي. والاثنان مثلهما مثل فقد المال أو فقد عزيز أو نحو ذلك من الابتلاء.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

- الصبر: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التسخط، وحبس الجوارح عما يغضب الله.
لاحظ أن الأخذ بالأسباب لدفع الضرر أو البلاء عن النفس لا يتعارض مع الصبر!

* * *

المؤمن... ألا يمرض نفسياً؟

مختصر مفيد:

١- الإيمان: قول وعمل، تصديق وشهادة باللسان بكلمة التوحيد، وأعمال قلب من خشية ومحبة ورجاء، وأعمال جوارح من مختلف الطاعات، كل ذلك يسمى إيماناً حتى الأعمال سواء كانت واجبة أو مستحبة فهي إيمان، وبذلك تفهم جيداً أن الإيمان يزيد وينقص على حسب التغير في هذه الأركان.

٢- المرض النفسي: نوع من أنواع الابتلاء كالمرض العضوي.

• إن الظن أن المؤمن لا يمرض نفسياً في مقابل أن الكافر يمرض نفسياً هو تماماً كظنك أن المؤمن لا يبتلى في الدنيا والكافر مبتلى!

وقد يرد سؤال، أليس الكافر هو الذي سيعيش في الدنيا معيشة ضنكاً؟ والمؤمن هو الذي سيعيش في الدنيا حياة طيبة؟ إذن كيف يمكن للمؤمن أن يمرض نفسياً؟!

- هذا سؤال مليء بالمغالطات!

ومعنى الآيتين مختلف عن هذا، إنها ذلك انتشر؛ لأن بعض

الوعاظ يتكلمون به على سبيل حث الناس إلى الطاعة طلباً للحياة الطيبة، ويخوفونهم من الكفر والمعاصي هرباً من المعيشة الضنك، ويستدلون بالآيات في غير السياق الصحيح.

فبداية نحتاج إلى فهم الآيتين فهماً صحيحاً:

• قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ملخص ما جاء في تفسير الطبري:

«الضنك: الضيق، - ثم ذكر الخلاف في تفسير محل هذا الضيق من العيش فذكر أقوالاً -:

- أن ذلك في الآخرة (النار - الزقوم).
- أن ذلك في القبر (يضيق عليهم).
- أن ذلك في الدنيا (المعيشة الحرام) لأن الحرام ضيق وإن اتسع (هذا لا يعني التعاسة بالمناسبة!).
- أنه يرزق ويوسع له في معصيته (وهذا المعنى هو الاستدراج، وهو يختلف عن المعنى الذي يتشتر في الناس، ويحسبون أنه الصواب).

- الضنك هو الرزق الخبيث والعمل السيئ.
- قيل لمعيشتهم في الدنيا ضنك وهي واسعة؛ لأنها تشتد عليهم إن أنفقوها لعدم إيمانهم بالعائد الأخرى.
- وأما القرطبي فرجح أن معنى الضنك في الآية هو عذاب القبر.
- قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

- ملخص ما جاء في تفسير القرطبي:
- «ذكر أقوالاً تفسيراً للحياة الطيبة:
- الرزق الحلال (قلت: ولو قليل!).
- القناعة.
- توفيقه للطاعات.
- الجنة.
- حلاوة الطاعة.
- السعادة.

- الرضا بالقدر - معرفة الله - تدبير الله له... إلخ».

- ورجح الطبري أنها القناعة.

الخلاصة:

ليس في الآية الأولى وعد للكفار بالتعاسة في الدنيا كجزاء مقابل كفرهم، ولا في الآية الثانية وعد لأهل الإيمان بعدم الابتلاء في الدنيا ولا السعادة التي لا يشوبها كدر في الدنيا، ولا أنهم يحصلون سعادة الدنيا وملذاتها أو عدم البلاء فيها بأسباب الآخرة، وبالتالي فكون المرض النفسي من جملة الابتلاءات فلا يمنع أن يصاب به المؤمن.

الإيمان عامل مقاوم وعامل معالج!

قد يقال، إن الإيمان له قوة وأثر، فكيف لا يشكل حاجزاً يمنع من يتحلى به ويتقوى به من الوقوع في براثن المرض النفسي، وقد جاء القرآن شفاء للروح، والمرض النفسي مرض للنفس أو الروح.

وهذا الكلام فيه شيء من الصحة مع شيء من الخطأ، فالإيمان يعتبر عامل مقاوم للمرض النفسي بصفة عامة، كما أن الطعام الجيد عامل مقاوم لكثير من الأمراض البدنية، ومع ذلك فوقع الأمراض العضوية مع التغذية الجيدة وارد.

والإيمان عامل معالج أيضاً للمرض النفسي، ولكن كما أن الحزن والغضب وكثيراً من الأمراض القلبية هي نوع سقم للقلب والروح، والإيمان يعالجها ويقاومها، فالمرض النفسي كذلك يصيب الإنسان رغم وجود هذا العامل المقاوم.

ويكفي أن نعلم أننا لسنا بالكمال الكافي لمنع هذه التغيرات بالكلية، والبشر في نقصان، والإيمان يزيد وينقص، ويبقى مساحة من المرض النفسي تقع ولو كان الإيمان في أوج كماله؛ لخلل عضوي،

وعلى كل حال القضية المهمة ها هنا أن ندرك أنه من المهم جدًا التعامل مع المرض النفسي باعتبار أنه بلاء يرفع درجة المؤمن أو يكفر سيئاته، وعذاب على الكافر.

كيف يكون الإيمان عامل مقاوم وعامل معالج لبعض الأمراض النفسية؟

نعرض الأمر في نقاط على هيئة وجهة نظر، تفتح آفاق العقل للفهم:

- ذكرنا من قبل عدة أمثلة على كثير من السلوكيات مثل الندم على الذنب، وأن بجوار مدخلها الصحيح مدخل مظلم من انحراف فيه أصابه خلل.

فالندم على الذنب والتوبة منه بطريقة صحيحة وصحية تزيد الإيمان وتنقي النفس، وتؤدي إلى الراحة والهمة والعمل الصالح، أما الانزلاق في المدخل المظلم فهو يؤدي إلى جلد الذات، ومع المزيد من التوغل في هذا النفق المظلم وعدم القدرة على الخروج منه بشكل صحيح قد يؤدي إلى نوع من أنواع المرض النفسي، كالاكتئاب مثلاً.

- كذلك مقت الذنب والبغض في الله، إذا تحول من بغض الفعل

الذي يدفع لترك الفعل، ويكون وقودًا للفرار منه، إلى بغض النفس والفاعل، وأورث حقدًا وغلاً وقساوة تنم عن انحراف في التطبيق، فهذا قد يؤدي مع الاطراد والاستمرار فيه إلى أنواع من المرض النفسي.

• ومن الأمثلة أيضًا، ما ذكرناه من قبل عن الفرق بين الصبر وبين القسوة، تخيل أن يصل الإنسان إلى التبلد والقساوة ويظن أنه يمارس الصبر المشروع، كيف تظن مآل الأمر إن استمر على هذا الحال من كبت المشاعر وعدم تصريفها بالبكاء مثلاً، أو عدم فقه الفرق بين الزهد الشرعي وبين كبت الرغبات واعتبار أن مجرد الرغبة الطبيعية وطلب ما أحل الله من الطيبات في مظائرها يعتبر شيئاً مُشيناً يستحق التأنيب؟

كيف تظن مآل هذه الانحرافات في فهم الدين وأثر ذلك على النفس؟

• وكذا الاحتياط في العبادات، له مدخل وطريقة، فإذا انحرف المرء وانزلق في النفق المظلم المشابه له صار الاحتياط وسوسة، ومع التوغل في ذلك النفق وعدم الخروج منه بشكل صحيح فهو يؤدي إلى مرض نفسي كالوسواس القهري.

لا شك أن هذه ليست أسباب هذه الأمراض النفسية فقط، لكن

هنا نحاول تناول علاقة المرض النفسي بالإيمان حتى لا نضل رهن دائرة مغلوطة من الظن بأن المؤمن لا يمرض نفسيًا.

• بعض العبادات القلبية كاليقين في الله، وحسن الظن به سبحانه، والافتقار إليه وَعَلَيْكَ وحبه، والتوازن بين الخوف والرجاء، وغير ذلك، لا شك أن تحقيقها كما ينبغي يقي الإنسان العديد من الأمراض النفسية.

والخلل في تحقيقها قد ينزلق بالإنسان في نفق مظلم من المرض النفسي، والخلل الناشئ عن سوء فهم لهذه العبادات أسوأ أثراً، فكثيراً ما يطغى الخوف، ويصرُّ مَنْ حولك على مزيد تخويف، وينطمس نور الرجاء، فيصاب المرء بوسواس أو خوف أو قلق مرضي، أو اكتئاب ثم هو بعد ذلك يظن أنه لم يحقق الخوف كما ينبغي فيزيد فيه حتى تحترق دوائره!

• ألا ترى أن أثر البلاء المسبب للحزن الشديد على من حقق الصبر والرضا وارتقى في كمالاته، أقل من أثره على من لم يحقق منه إلا القدر الواجب مثلاً؟ أو من لم يحققه بالكلية؟ أو من حققه مع خلل؟

- كذلك من ظن في نفسه أنه قادر على حالة إيمانية عالية فقفز إليها ثم لم يصبر على ذلك، فعالج الأمر بتأنيب شديد ولوم للنفس، ولم يأخذها بتدرج سليم وصبر وحلم، فذلك أيضًا عرضة لبعض الأمراض النفسية.
- التعامل مع أمراض القلب، التعامل مع شهوات النفس والذنوب بطريقة نور النبوة، تختلف عن التعامل معها بطريقة خاطئة قد تؤدي أيضًا للمرض النفسي.
- طبيعة العمل الصالح الإيماني الذي يمارسه الإنسان يؤثر سلبيًا وإيجابيًا في النفس، فالتعاون على البر والتقوى والحرص على الجُمع والجماعات والتآخي والتراحم وصلة الرحم مع فقه القدر الواجب وما زاد عليه، بحيث تكون علاقاته متوازنة لا ضغط بالإفراط فيها ولا التفريط، لا شك أنها نوع عامل مقاوم ومعالج لكثير من الأمراض النفسية.
- فهذه أمثلة على بعض علاقات المرض النفسي بالإيمان، فكيف يقال بعدها أن المؤمن لا يمكن أن يمرض نفسيًا؟ إلا إن كان القائل يظن أن لقب «مؤمن» لا يطلق إلا على مؤمن كامل الإيمان كجبريل

وميكال، لا ينقص إيمانه أبداً، ولا يفتر أبداً، ويصيب الحق بدقة بلا هامش خطأ أبداً، وهذا التفكير في نفسه هو مرض نفسي أو مدعاة إلى المرض النفسي، مع كونه سوء فهم للدين والدنيا جميعاً.

والصواب أن ندرك أن الناس درجات، وأن الإنسان الواحد يزداد إيمانه وينقص في اليوم الواحد بحسب طاعاته، وأن نسأل الله أن يجعلنا في زيادة، وأن السير على الطريق ولو ببطء خير من البكاء على اللبن المسكوب، وأن الإنسان خُلِق في كبد، جهاد حتى الممات وكما قال ابن القيم: «لا بد من سِنَّة الغفلة، ورُقَاد الهوى، ولكن كن خفيفَ النوم فحُرَّاسُ البلد يصيحون: دنا الصباحُ!»^(١).

(١) الفوائد، ابن القيم.

كُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ مَلِكٌ!

آفة لا يفقه ما يسببها إلا سعيد، ولا يغفل عنها إنسان إلا انزلق في تلك الكرات السوداء!

يقول رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر الله لهم»^(١).

كل إنسان في نفسه شعور أنه ملك أو.. ملك!

نقرأ عن التدرج في الطاعات والصبر على النفس، ورجاء رحمة الله، نقرأ هذا الحديث، فلا يغلفنا إلا شعور واحد: هذه الأشياء ليست لنا، نحن فوق الناس، نحن لا ينبغي أن نعامل أنفسنا كما نحدث الناس، هذا انزلاق عن الطريق يحرف الإنسان إلى مدخل ذلك النفق المظلم!

الحقيقة أن في الإنسان دائرة، يتعانق الصفر فيه مع الحد الأقصى متجاورين في نقطتين متتاليتين دوماً.

فإذا لم يضبط الإنسان سيره بحيث يتراوح بين الحد الأقصى وما قبله فقد يعود إلى الصفر في لحظة نَزَقٍ!

(١) رواه مسلم.

ويمكن دومًا العمل على أن تتسع قدر الدائرة بتدرج وصبر وعمل مستمر فينفتح له أفق جديد، أما أن يكسر العداد، فتسير السيارة بلا هدى عاجزًا عن إدراك الرقم الحقيقي الذي يسجله في طريق مظلم بلا هدف، فإن هذا نذير خطر، لن تعرف متى ولا كيف تكبح جماحها في اللحظة المناسبة، والتوفيق بيد الله والنجاة رحمة من الرب جل في علاه.

تكلمنا أكثر من مرة عن أن مدخل كل شعور صحيح شرعي بجواره مدخل مظلم لنفق آخر مفضي إلى المرض النفسي، والانزلاق فيه يحدث بانحراف بسيط يسعد الشيطان به جدًا!

كذلك جلد الذات وتعذيب النفس والتلذذ بذلك عند العجز عن الطاعة هو النفق المظلم الذي ينزلق فيه البعض إذا أرادوا الدخول لذلك النفق المنير لمحاسبة النفس وتصحيح مسارها والتوبة والانكسار لله وعلاج داءها وحثها على مزيد من البذل.

فالمبالغة في تقدير الذات، والتعامل معها بطريقة: هذا لا يليق بك، مفيد جدًا قبل الذنب، وقتها تمنعك العزة والأنفة وخشيتك على ثوبك الأبيض من وحل المعصية، ويحدوك حبك لله وخشيتك وحيأؤك أن يراك على معصيته، لكن نفس هذه الطريقة بعد الذنب هي مدخل ذلك النفق المظلم.

الله ﷻ جعل لنا مخرجاً بعد الذنب اسمه «التوبة» وجعل لذلك عمل قلب اسمه «الرجاء» و «المحبة» و «الافتقار» ويفرح بعبده إذا تاب، ووقتها تصلح طريقة يا رب، عبدك المسكين جاءك يطرق بابك ويسط كف الضراعة سائلاً المولى جل وعلا أن يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات ويرحم ويغفر، ويقل العثرات ويمحو أثر الزلات، فإن لم تكن يا ربنا أهلاً لرحمتك فرحمتك أهل أن تصل إلينا.

وقد قال النبي ﷺ: «أذنب عبد ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال ربه ﷻ: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: أي رب أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي، فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، فليفعل ما يشاء».

يعني طالما العبد مقيم على تكرار التوبة فلا يضره أن يضعف ويكرر المعصية!

فينبغي أن نعلم أننا بشر من البشر الذي خلقه الله تعالى، لم نولد فوق القمة، ولن نستطيع أن نصل إلى القمة بالطائرة، إنما هو طريق واحد شاق ومتعب ولمشقتة لذة، وله دروب ومزالق خطيرة، فجلوسك تحت سفح الجبل سفه، ونومك في الطريق مع أحلام

الوصول إلى القمة دون عمل سفيه، وظنك أنك غير الناس وأن لك طريقاً لم يسلكه أحد قبلك ولا يستطيع أن يسلكه سواك جهل بنفسك وبالدين، وفخ من فخاخ الشيطان.

لا يمكن أن تدرك الكمال البشري بغير تدرج وصبر، لم نولد في كمال، ولن نتحول في ليلة إلى الكمال.

* * *

علاج المرض النفسي.

إن المختص بالعلاج النفسي هو الطبيب النفسي والمعالج النفسي
بلا شك!

فقط نريد أن نُذكر بأمور:

- الرقية علاج، وكم من مريض نفسي وبدني شفاه الله بالرقية فقط، فلا ينبغي الاستهانة بالرقية أو الاستخفاف بها.
- الدواء والرقية والعلاج السلوكي أسباب، والطبيب سبب لا يتحكم في السبب، وإن المرء قد يأخذ بالسبب ولا تقع النتيجة على النحو المتوقع، فلا تركز إلى أسبابك، ولا تغتر بها.
- رغم أن القاعدة النظرية التي يقرها الأطباء أن عقيدة الطبيب لا تتدخل أو تؤثر في طريقة علاج المريض، لكن الواقع مؤسف، فشيء من الحذر لا يضر.
- العناية بإصلاح الدين مع العلاج النفسي يؤثر إن شاء الله تأثيرًا إيجابيًا ولا يضر!

- هناك مرض نفسي، ومرض يحتاجون إلى علاج، ولكن التوسع والتهافت في هذا الأمر ليس محمود عواقبه.

فرق يفقهه السعيد!

إن «علم النفس» و«فقه النفس البشرية» في ديننا ينطلقان من أرضين مختلفتين، أو دعونا نقول: سيران في خطين، تارة يتوازيان في مواضع يفترقان ويبدو للناظر أنهما متشابهان وليس كذلك! وتارة يلتقيان في تناغم، وتارة يفترقان افتراقاً واضحاً لكل ذي عينين.

والاستفادة من علم النفس وطلب العلاج النفسي لا يختلف فيه العقلاء، كذلك الاستفادة من علوم تطوير الإنسان وقدراته، لكن فقط بعض الملاحظات التي ينبغي على من يريد الاستفادة أن يضعها في حسابه:

- الوعي بالعلم الشرعي، والعناية به يعين على تمييز الغث والسمين، والاستفادة منها بأقل مفسد.
- هذه الكتب والمراجع مبنية على نظريات ودراسات أجريت على أرض غير أرضنا وبيئة غير بيئتنا أو على الأقل أجراها قوم يفكرون بنمط نابع من بيئة غير بيئتنا وثقافة تختلف كثيراً عن ثقافتنا.
- وبالتالي فالناظر في هذه الكتب لو لم يستنر بنور الوحي أثناء سيره في هذه الكتب والدراسات فهو كحاطب ليل، قد يحمل مع النافع من الحطب ما يؤذيه من الهوام والأفاعي!

وإنما ينبغى العناية بهذا في ذلك الأمر؛ لأن الناظر في النفس وأمراضها والانحرافات فيها لا بد أن يتحرك في إطار الشرع الذي جاء بشفاء النفس.

• مراعاة ألا تتسبب النظريات والأفكار والوسائل التي نستحسنها من خلال هذه الكتب والدورات، في استيراد مشاكل أكبر، أو تطرف عكسي.

• إن كتب التنمية البشرية ودوراتها الجاد منها يعتمد بالأساس على تنمية الأسباب والجوانب المادية بطريقة طاغية على الجانب الروحي والعلاقة الصحيحة بين العبد وربّه - إلا من رحم الله - وكثير منها يعتمد على بيع الوهم، فينبغى الحذر وتنمية الجانب الروحي بطريقة صحيحة.

• لا نغفل في هذا المقام عن ذكر أن هناك بعض الدورات تتناقض تناقضاً صارخاً مع العقيدة الصحيحة، والحديث هنا عن تلك الدورات المتعلقة بالطاقة، وللأسف الشديد كثير ممن تصدر في هذا المجال أظهر طعناً في السنة وكتبها التي لا يختلف العلماء في تعظيمها؛ كصحيح البخاري وطعن في المذاهب والأئمة، ولا

يستحي من الجهر بذلك، أو إظهاره في صورة الناصح المشفق،
فهؤلاء لا ينبغي أن يقال نستفيد من الخير الذي لديهم، فالخير عميم
في كل مكان وليس عندهم ما لا يوجد عند غيرهم لكي نساهم في
نشر باطلهم.

* * *

نهاية الرحلة

لم أشبع!

تلك حقيقة بلا مرأى، لم أشبع!

رغم أنني خلوت بالأوراق، وثرثرت وحدي ساعات طويلة
دون أن أخشى مقاطعة أو اعتراض!

بل لم أبخل على نفسي كلما سنحت فرصة لمزيد ثرثرة بعنوان أو
مقطع، وكلما لم تسنح الفرصة وتاقت فقط للثرثرة لم أمنعها!
لكنني أدرك أن هذا الموضوع كان يتوق لمن هو أوسع اطلاعاً
وأكثر عمقاً وخبرة.

لعلك أيضاً لم تشبع أيها القارئ، لكن النقطة التي ينبغي أن تكون
واضحة إلى حد الإشباع هي أننا بحاجة ماسة لإعادة مراجعة أفكارنا
وتصحيح الكثير مما كنا نظنه مسلمات نفرضها على أنفسنا وعلى من
حولنا.

نحن بحاجة إلى كثير من العلم، كثير من الفكر، كثير من

الإخلاص، كثير من... الافتقار إلى الله حسن التوكل عليه.

نحتاج إلى سعة عقل، ومرونة، وحوار ونقاش مثمر مع أقران،
نحتاج إلى القراءة والاطلاع وفق منهجية صحيحة، وبعد بناء النفس
وفق أسس شرعية صحيحة متقنة.

نحتاج إلى كثير من الصمت، وكثير من الوقت.

اللهم قنا شر أنفسنا وسيئات أعمالنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.
سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك
وأتوب إليك.

* * *

فهرس المحتويات

٥	تقريظ
٦	تقديم
١١	فصل ومضات الفجر
١٥	الاستشارات ... لماذا؟
١٨	توكل ... افتقار!
٢٠	شفقة.. رحمة!
٢٣	ترفق... فما الرفق؟
٢٨	تمني الخير لمن خالف نصحك... حسن خلق!
٣١	الستر وترك المعاييرة والتنقص!
٣٦	الصبر والاحتساب!
٣٩	حب وخشية ورجاء!
٤٣	فصل آفاق جديدة!
٤٨	هواية أم احتراف!
٥١	قناعتك أن هناك حل... حل!
٥٣	الحلول الجذرية أكثر من اللازم!

- ٥٤ احذر الفتوى بلا علم!
- ٥٦ مراعاة الأحكام الشرعية في سماع الاستشارات
- ٥٨ لا تضع «كليشيهات» للرد على «كل» استشارة!
- ٥٩ لا تتحمل عنهم المسؤولية!
- ٦١ لست عليهم بمسيطر!
- ٦٣ ملفات صالحة للاستخدام.
- ٦٤ لا تعتنق الأفكار مسبقاً!
- ٦٧ إسعافات أولية!
- ٦٩ فروق ينبغي فقهها!
- ٧١ طبائع ينبغي إدراكها!
- ٧٣ التوبيخ شهوة!
- ٧٥ هجوٌ سفيه!
- ٧٦ إنها ليست خبرة حقيقية!
- ٧٨ أخرج نفسك من حيز المشكلة!
- ٧٩ الماء البارد!
- ٨١ مواطن القوة!
- ٨٣ توجيه لا جبر!

- لا تُرِق ماء وجهه! ٨٥
- هذب! ٨٨
- بين الاختصار والتطويل! ٩٠
- لا تقع على كلمات الكتب بالصمم والعمى! ٩٣
- لا تكن قَسَّ اعتراف! ٩٥
- إنها ليست مسابقة! ٩٩
- لا تكن إجابتك كقصر التيه! ٩٩
- موهبة وتركيز! ١٠١
- قوة قلب! ١٠٥
- لا تبخل بمعلومة طالما وضعتها في موضعها ١٠٦
- لا تكن مثاليًّا في ردِّك... قل شيئًا ممكن التطبيق! ١٠٦
- فصل عمق... ولآلى ١٠٩
- لا تعطه أداة تؤذيه! ١١٣
- لا تكن كصويجات امرأة العزيز! ١١٤
- انتبه للشوابت! ١١٥
- سيقتلك إذن يا أحق! ١٢١
- لا تنشر لسانك كما تنشر الأفعى رأسها! ١٢٣

- وجه انتباهه إلى السؤال الأهم! ١٢٧
- تقويم سلوك لا تغيير ظروف! ١٢٩
- إنه يحترق! ١٣١
- الغضب! ١٣٦
- خاطرة: الكلمة مسئولية ١٤٣
- واقعية لا مظهرية فارغة ١٤٧
- البغي والكلب! ١٥١
- أتحبه لأملك؟ ١٥٣
- وقفات مع حديث الفضل ابن عباس: ١٥٩
- فصل ومضات أسرية ١٦٧
- تعلم! ١٧١
- لمن توجه خطابك؟ ١٧٤
- مروءة! ١٧٨
- التربية منظومة كاملة ١٨١
- الأم المثالية... ليست تلك المطابقة لكتبهم! ١٨٤
- خواطر أمننا الغولة! ١٨٧
- اعتن بعلاج ظاهرة ضيق الأفق ١٩٣
- لماذا تفشل وسائل حل المشاكل؟ ١٩٧

- ١٩٩ اعتن بتصحيح المفاهيم!
- ٢٠٤ تبادل وتوافق
- ٢٠٧ فصل كن تقيًّا لا باردًا!
- ٢١١ ذنوب الخلوات... لقد أسأت الفهم يا فتى!
- ٢١٥ تعلم!
- ٢١٧ حياء!
- ٢١٩ تفصيل بقدر الحاجة!
- ٢١٩ كن عاقلًا!
- ٢٢٤ حدد موضع الخلل بدقة.
- ٢٢٦ حب أم عزلة شعورية؟
- ٢٢٨ واقع أم خيال!
- ٢٣٠ تصحيح مفاهيم: أنواع المحبة:
- ٢٣٥ لا رهبانية في الإسلام
- ٢٣٧ فصل تلك الكرات السوداء!
- ٢٤١ هل المرض النفسي عقوبة؟
- ٢٤٦ المؤمن... ألا يمرض نفسيًّا؟
- ٢٥٠ الإيمان عامل مقاوم وعامل معالج!
- ٢٥٦ كلُّ واحدٍ في نفسه مَلِكٌ!

٢٦٠ علاج المرض النفسي
٢٦٢ فرق يفقهه السعيد!
٢٦٥ نهاية الرحلة
٢٦٧ فهرس المحتويات

* * *